ألفت عاطف

الظلام يرَى

رواية



ر والتوزيع





الظلام يرى

ألفت عاطف

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: محمد عبد الغفار

رقم الإيداع: 2020/1591

الترقيم الدولي: 5-095-824-977-978



186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

الظلام يرى

روايـــة

ألفت عاطف



إهداء

إلى هؤلاء الذين لم يُخلَقوا زهورًا..

فجعلوا من أنفسهم الوحل الذي يُنبِت الزهور..

إلى من كانت ظلمتهم جميلة كظلمة الفضاء..

تنقل الضوء إلى العالم على الرغم من أنها لا تُضاء به..

إلى محاربي المرض النفسي..

ســلامٌ ووردة.



«ربما يتمكّن المرء يومًا ما، مع الفهم المتقدم، أن يدرك المنهج الكامن خلف الجنون»!

ديفيد لانج



الجزء الأول



(١)

«جمال»

هل يمكنك أن تقتل شخصًا لم يولد بعد؟

بالطبع..

ازرع ذنوبًا صغيرة في مواضع خصبة. أطلِق رصاصة واحدة، ولسوف تصير على غفلة منك رصاصة عابرة للزمن. ستموت أنت وتبقى هي تشق طريقها من جيل لآخر. تجرح ما تجرح، وتمزِّق ما تمزِّق، وتقتل من تقتل. هل تظن أن الجحيم عقاب مبالغ فيه لبضعة ذنوب صغيرة ارتكبتها في لحظة حمق أو يأس؟ فلتعرف أولًا قصة حياة كل ذنب منها منذ لحظة مولده على يديك حتى لحظة وصوله إلى مثواه الأخير في الجحيم، لتعرف كم الضحايا الذين أردَتْهم رصاصتك الصغيرة في رحلتها الأبدية.

في عالمنا هذا، لا شيء يولد ليموت.. كل شيء يولد ليبقى، وإن كنا

لا نعي طريقته في البقاء. نحن نحمل بداخلنا بعضًا ممَّن سبقونا، وبعضًا ممَّن حولنا، بعضًا من الأرض وبعضًا من السماء. وعندما نرحل.. لن نرحل فعلًا. سيرحل بعضنا ويبقى أكثرنا في أشخاص غيرنا وأشياء سوانا.

إنه قانون البقاء، لا شيء يفنى.. ولا شيء يُستحدث من العدم.

ولهذا، فإن أصعب ما في الحكايات هو اختيار بداياتها، ونهاياتها؛ فبداية القصة هي بداية ألف قصة آتية، ونهايتها هي نهاية ألف قصة ماضية، فمن أين يمكن أن تبدأ تلك الحكاية؟

ربما منذ الأزل، وربما في ثلاثينات القرن الماضي، في تلك البناية العتيقة بحي الجمالية، التي كان يملكها الحاج «أبو مراد» هي والكثير من البنايات والمحال المجاورة لها، وكان يسكن فيها هو وزوجته وولداه «مراد» و«جمال».

أما الشقة الضيقة المستأجرة في الطابق الأول، فكانت تسكنها أسرة صغيرة: رجل وزوجته وابنتهما الوحيدة «أمل». كان الرجل يسافر بالأسابيع لعمله البسيط في السويس، ثم يعود إلى واحته الهادئة. يغتسل فيها من صخب العمل وهمومه. أسرة هادئة جدًّا.. لا يسمع لهم أحدٌ من الجيران صوتًا لأيام متتالية، حتى يكادوا يشكون في وجودهم من الأساس، إلى أن يصطلك الباب بحذر، ويتقافز أحدهم على الدرج بخفة لقضاء حاجةٍ ما بالخارج، ثم يعود إلى المنزل بالطريقة نفسها. وفي الأعياد، يتبادلون مع الجيران أطباق الكعك والحلوى، وبضع كلمات وابتسامات، ثم ينسلون عائدين إلى منزلهم من جديد.

ولهذا لم يشعر أحد عندما حل موعد عودة الرجل ولم يعُد، ولم يشعر أحد بالمرأة وابنتها، ذات الستة عشر عامًا، وهما متشحتان بالسواد، تبكيان في أركان شقتهما الصغيرة بعد أن تم الدفن ومرت عليه أيام كثيرة. لم يعزِّهما أحدٌ من الجيران؛ لأن أحدًا لم يعرف عن الأمر شيئًا.

بقيتا على حالهما لشهرين أو أكثر، حتى خرق صخبَ منزل الحاج «أبو مراد» المستمر طرقاتٌ خجولٌ مضطربة. فتحت الحاجة الباب فوجدت الشابة الصغيرة التي لا تراها سوى في الأعياد، بالابتسامة ذاتها والوداعة ذاتها والملابس القديمة النظيفة ذاتها.. جاءت اليوم باكية مرتعشة تطلب المساعدة، بعد أن وجدت أمها فاقدة للوعي وملقاة على أرض الحمام. استقبلت الحاجة الخبر باهتمام بالغ، وبكلمات قليلة أنهت ما بالمنزل من صخب وأعلنت فيه حالة طوارئ. أخبرت «مراد» وأباه بالأمر، فأسرع ثلاثتهم مع الفتاة وأمها إلى أقرب مستشفى، وهناك فقط عرفوا لأول مرة خبر وفاة الرجل.. خبر حزين جاء في أعقاب آخر يُفترض أن يكون سعيدًا؛ فالمرأة حامل بشهرها الثالث، هل يعزُّونهما أم يهنئونهما؟! لم يدروا. فقط استقبلوا الخبر بابتسامات مصطنعة وحزن عميق.

ماذا ستفعل المرأة وابنتها مع طفل جديد بلا رجل في المنزل، ومن دون أي مصدر للدخل؟

وبعد صمت طويل، سحب الحاج «الحسيني» زوجته وراح يهمس في أذنها بجدية، في حين تهز هي رأسها بتأييد وتفهم، ثم ما لبث أن انتهى حديثهما القصير حتى قامت واتجهت صوب الفتاة، ربتت بحنوٍّ على كتفها قائلة:

- عزيزتي.. أريدك أن تعتبريني مثل والدتك تمامًا.. اعتبريني خالتك أو عمتك، والحاج «أبو مراد» من الآن سيصير في مقام والدك، و«مراد» و«جمال» هما أخواكِ وظهرك وقت الشدة.. جميعنا لن نتركك تحت أي ظرف.

صمتت وهي تحدِّق في عيني الفتاة، لعلها تفهم ما كانت ترمي إليه دون أن تتفوَّه به، لكنها لم تجد بُدًّا، فأردفت:

- الحاج سيتكفل بكل مصاريفكما. أي شيء ستحتاج إليه أمك أو المولود الجديد أو ستحتاجين إليه أنتِ هو من الآن مسؤوليتنا يا ابنتي.

لم ترد الفتاة، انخرطت في نوبة بكاء مكتوم كعادتها هي وأمها، فاستطردت «أم مراد» في محاولة للتودد لها:

- لو تعلمين كم كنا أنا والحاج نتمنى أن نُرزق بفتاة جميلة مثلك.. لكنه النصيب.. رُزقنا بثورين صغيرين.

ضحكت ضحكة مفتعلة قصيرة، لكن الفتاة استمرت في البكاء، فعلمت حينها أن الحديث قد انتهى، وأن شيئًا لم يبقَ ليُقال. ربتت على كتفها بحنوٍّ ثم قامت لتنضم إلى زوجها وابنها على الطرف الآخر من الردهة، لتبقى «أمل» وحيدة تمامًا كما قُدِّر لها أن تكون.

* * *

مرَّت الأيام التالية وئيدة وكئيبة، يحفها الصمت ويبطئ إيقاعها المرض والهزال الذي لم يفتأ يعبث بجسد الأم، وروح الفتاة. أنذرهما الطبيب بخطر ما قادم، قد يطيح بحياةٍ ما..

الأم أم الوليد؟

ظل السؤال عالقًا بلا إجابة، وظلت الغصَّة في حلق الفتاة تقف بها على حد فاصل بين الحياة والموت. كم هو ثقيل الانتظار. كانت تحدق في المستقبل وتستجديه أن يرأف بحال بيتهما المتصدع. تراقب الآتي بفزع وهي تعلم أنه لن يخلف موعده في المجيء. غد غير متجانس، من حياة وموت متعانقين ومتشابكين. يبطل كلٌّ منهما أثر الآخر على نفسها. تراودها فرحة وليدة تارة، ثم يغتالها حزن جارف، ثم تُبعث فرحة أخرى من جديد لتموت بعد يوم أو بعض يوم.

ازداد الغد اقترابًا بخطوات منتظمة حتى بلغ محطته الأخيرة. حل في الحاضر وتمازجا.. والموت الذي كان وسواسًا في نفس «أمل»، صار واقعًا يُلمس ويُرى. وُلدت الروح الجديدة في شهرها السابع، ورحلت الأخرى في اللحظة ذاتها، وكأن المرأة قد أبصرت القدر الضئيل ممَّا تبقى لها من حياة، فقسمته بجرعات متناهية الصغر على ما تبقى لها من أيام، حتى جاء اليوم الأخير ونفدت الروح من الجسد.

جاءت الوفاة مفاجئة للجميع، والولادة كذلك، حتى إن أحدًا لم يكُن قد ابتاع للصغيرة أيًّا من حاجيات المواليد وملابسهم. كانت صغيرة كلعبة، تثير القلق من فرط ضآلتها، لكن الطبيب طمأن الجميع أنها سليمة تمامًا ومكتملة النمو، فانتقل الاهتمام للراحلة التي لم تمتلك حتى مدفنًا يستر موتتها. لم يكُن هناك من داعٍ لإقامة عزاء؛ فـ«أمل» هي المتبقية الوحيدة من الأسرة، أما الجنازة والدفن فقد قام الحاج «أبو مراد» بالتكفل بهما بالكامل.

ظلت «أشجان» تنتقل من يد إلى أخرى، حتى وصلت أخيرًا إلى مستقر آمن في فراش «جمال»، الابن الأصغر للحاج «أبو مراد». لم يكُن بالغرفة سواه هو و«أمل» و«أشجان»، وإحدى الجارات تبحث عن مناشف وملاءات تصلح لتغطية الجسد الصغير، وكذلك عن مرضع تتكفل بإرضاعها.

نامت بينهما هناك، متدثرة بالملاءة والفراش. لا يظهر منها سوى عينين مغمضتين ووجه متناهي الصغر لم تتكشَّف ملامحه بعدُ. شعر أسود كثيف ووجنتان ناعمتان لم تزُل من عليهما آثار الولادة تمامًا. راحا يتأملانها في خشوع، وفي رأس كل منهما ألف فكرة مختلفة. كان هو مبتسمًا ببلاهة، سعيدًا ومندهشًا من هذا المخلوق الجميل متناهي الصغر الماثل بين يديه. يتلمَّس برفق أنفها الصغير بطرف إصبعه فتزداد ابتسامته اتساعًا، وتزداد دموع «أمل» انهمارًا. وضع كفه فوق عينيها ليحجب عنهما الضوء، وما هي إلا لحظات حتى انفتحتا ببطء ولأول مرة على وجهه. تهلل فرحًا وظل يضحك وهو يقول:

- انظري يا «أمل».. إنهما زرقاوان.

لكنها سرعان ما أغلقتهما مع عودة الضوء، بعد أن أزاح كفه من فوق رأسها. ابتسمت «أمل» وتبلل بدموعها وجه الصغيرة «أشجان».

* * *

عام مر.. قام بعده الحاج «أبو مراد» بتزويج «أمل» من ابنه البكري «مراد». كانت الفتاة قد أتمت عامها السابع عشر، ولم تكُن على قدر من الجمال، فلم يملك سوى أن يزوِّجها ابنه ليطمئن على مستقبلها ويتم واجبه تجاهها.

جمعتهما علاقة محبة بسيطة وهادئة. لم يقُل لها كلامًا يشبه ما يسمعه الشباب في الأغاني الغرامية، ولم تشعر هي بشغف العشق الأول، واضطراب دقات القلب الذي لطالما سمعت عنه من جاراتها. كانا يكتفيان بلقاء منتظم بعد العصر في شرفة المنزل، يشربان فيه الشاي بالنعناع. يربت هو على رأسها فتطمئن. تحتضن ذراعه وتريح رأسها على كتفه فيبتسم. يحدثها قليلًا عن تفاصيل عمله، ولا تجد هي ما تتحدث عنه فتكتفي بالإنصات. لقاء هادئ عصرًا، ولقاء هادئ مساءً، كانا أكثر من كافيين لإبقاء تلك الابتسامة الودود على وجهيهما باستمرار.

وانتظر الجميع الحفيد، فلم يأتِ. رضوا جميعًا بقضاء الله، وبالهدية الصغيرة التي حلّت عليهم من السماء لتملأ بيتهم مرحًا وسعادة.. «أشجان»، البذرة التي حملتها الرياح لأرضهم فانغرست فيها ثم نبتت وترعرعت، وحولها يطوف «جمال» فرحًا. يرقب نموها ويسقيها ويرعاها. يرى كيف تتشكل وتتبدل يومًا بعد يوم، فيُعاد تشكيله ويتبدل هو الآخر.

كان فتى مشاغبًا عنيفًا، يستغل جسده القوي وقامته الفارعة في خدمة رغباته الطفولية الشرسة، وهواجسه التي لا تفارقه عن أصدقاء ماكرين، وأهل لا شاغل لهم سوى إذلاله وإخضاعه لسلطاتهم. ينتقم لأناه المتضخمة مرةً بقتل الأرانب التي كانت أمه تربيها على سطح منزلهم، ومرة بإطعام كتاكيتها للكلاب الضالة بالشارع، وأحيانًا بقذف أوانيها الخزفية من النوافذ، وسكب الزيت على الأرائك. أما في المدرسة، فلم يكُن يتوانى عن حرق طرابيش زملائه أو سكب ماء النار على حقائب معلميه. يلصق سراويلهم بالمقاعد باستخدام الغراء، ويبرح أقرانه ضربًا بشكل شبه يومي. كان بينهم قائدًا لا يقدر أحد على مخالفته الرأي؛ خوفًا.. لا حبًّا ولا احترامًا.

أما «أشجان»، فكان في حضرتها شخصًا آخر. تذوب أناه وتمتزج بروحها الغضة، فتسمو به فوق جسده المتصلب وقلبه المغلق وروحه المتشنجة. كان يستلهم منها طفولة لم يجربها، وبراءة لم يختبرها، وعطفًا لم يستشعره مع سواها. هي ملكيته الخاصة التي لم يسمح لأحد بمشاركته إياها.. لعبته، ثم ابنته، ثم صديقته وحبيبته، والقطعة المضيئة من روحه المظلمة. يحفظ شكل ملابسها منذ أن خلعوا من عليها الملاءة الزرقاء وألبسوها ملابس الرضَّع الوردية المزركشة بالورود. يحفظ تاريخ اليوم الذي فُطمت فيه، والذي حرموها فيه من حفاضاتها الصغيرة. اليوم الذي نبتت فيه سنها الأولى، ويومها الأول في المدرسة، ثم يومها الأخير فيها بعد أن أنهت البكالوريا وقرر الجميع عدم ضرورة استكمالها للتعليم. حتى إنه عرف اليوم الذي تبادلت فيه نساء الجيران ضحكات ماكرة، فهم منها أنها انسلخت من شرنقة الطفولة، لترفرف في أرجاء منزلهم بأجنحتها المشرعة وأنوثتها الوليدة.

وكما كان يستحوذ عليها طفلًا باعتبارها لعبته الخاصة، استحوذ عليها شابًا باعتبارها حبيبته رغم أنف الجميع. يقضيان جل وقتهما معًا.. تحدِّثه عن المهام الصغيرة التي تتعلَّم القيام بها في البيت، ويحدثها عن الأحداث الكبيرة التي تحدث خارجه. عالم جامعة فؤاد الأول، والاتحادات الطلابية، وأبطالها أمثال «محمد بلال» و«علي طه عفيفي». حكى لها كيف قاوم «بلال» قوات الأمن في أثناء التظاهرات الطلابية الضخمة عام ١٩٣٧م. حكى لها عن عشرات القتلى والجرحى الذين أسقطتهم رصاصات الأمن، وعن «بلال» الذي اختطف جثة صديقه «علي طه» وأخفاها في مدرج المحاضرات، ورفض تسليمها للسلطة إلا عندما يقيمون له ولزملائه جنازة تليق ببطولاتهم وتضحياتهم الثمينة،

وقد كان. حكى لها كيف حبسه أبوه في أثناء حدوث ذلك كله في بدروم البناية لمنعه من الانضمام إليهم وهو الطفل الذي لم يتعدَّ السنوات العشر، وكيف أنه حطَّم كل المقتنيات الثمينة التي كانوا يحتفظون بها هناك انتقامًا منهم واعتراضًا على تعسُّفهم. كان يقرأ معها كتب الشعر والسياسة والصحف المزدحمة بأخبار الاضطرابات السياسية للبلاد.. احتجاجات الطلاب.. مفاوضات «النقراشي» مع بريطانيا.. الإحباط الشعبي الكبير الذي خيَّم على الجميع جرَّاء الاستقلال المنقوص، الذي أرادت بريطانيا المنَّ على مصر به. كان غاضبًا كالجميع وكانت تشاركه لحظات غضبه وثورته كما تشاركه لحظات الشغف الحميمة التي لطالما جمعتهما. يقرآن معًا الجريدة حتى ينام أحدهما على كتف الآخر، ثم يستيقظان على ضربات حذاء أمه المخصَّص لتعريفهما بالمسموح وغير المسموح في ذاك المنزل. صار حبهما درعًا منيعة لا يخترقها حزن أو خوف، وكثيرًا ما شعر أنها درعه التي تصد عنه الضربات الموجَّهة من الداخل، لنفسه من نفسه. تروِّضه وتربت على قلبه القاسي فيرق، تمسِّد رأسه المجنون فيستقر، تحتضن جسده المتشنج فيلين. وهو يحاول بأقصى ما يستطيع أن يشذب نفسه ويجمِّلها حتى لا تتأذَّى ممَّا فيها من عدوان؛ فهي ملاكه الخاص الذي يستحي أن يمارس شيطانيته في حضرته.

ثم كان ذلك اليوم الذي انزلق فيه العالم نحو هوة الجحيم، أمام عيني «جمال» ورفاقه من المتظاهرين على «كوبري عباس»، هذا اليوم البائس الذي ارتفعت فيه الهتافات نحو السماء، وسقطت فيه الأجساد نحو موت محتم في أعماق النيل.

«الجلاء بالدماء»..

صاح بها الطلاب في مظاهرة ذكَّرت الجميع، وأولهم «جمال»، بما حدث في المكان ذاته منذ أكثر من عشرة أعوام. الغضب نفسه، الثورة نفسها، والهراوات والرصاصات نفسها، الموجهة تجاه الطلبة من قِبَل البوليس. إلا أن هذا الفصل من مسلسل الغضب كان أشد قسوة وأكثر رعبًا. الأرض تمور من تحت أقدامهم، وتنفتح شيئًا فشيئًا على الموت. تساءل الجميع:

- تُرى هل جرؤ البوليس فعلًا على فتح «كوبري عباس» وهذا الحشد الطلابي يقف فوقه؟

المياه تظهر بوجهها المفزع من بين دفتي الكوبري، والحشود تنزلق نحوها بلا أمل في النجاة. زلَّت قدم «جمال» ومَن معه. تشبَّث بالحديد وتدلَّى جسده في الهواء، وأمام عينيه سقط العالم بأكمله في فم الهلاك المفتوح.. العالم بأكمله.

كيف أنقذوه؟ ولماذا أنقذوه؟ لماذا كُتب عليه العيش مع تلك الذكرى؟ تلك الذكرى التي عادت ببطء بعد ثلاثة أسابيع من فقدان الذاكرة الهستيري بعد الحادث. قضاها كالميت، وأفاق بعدها كالميت أيضًا. شيء ما رحل عن روحه ظهيرة ذلك اليوم.. ولم يعُد بعدها أبدًا.

* * *

في الروايات الجيدة لا تتكرَّر الفصول، أما في الحيوات السيئة فتتكرر. يحل الماضي في الحاضر في نقاطٍ مكانية مختلفة حتى لا يُفتضح مبعثه، وأحيانًا يحل في المكان ذاته، فتكون القصة مدعاة للسخرية والأسى. يمكن أن نسمي الأمر صدفة.. أو لعنة، لكن الأسماء لا تغيِّر من واقع

الأمر شيئًا، أن الماضي لا يموت بمروره، بل يبذر البذور في أثناء عبوره لتنمو في أرض أخرى، وتبقى عمرًا آخرَ.

حملت «أمل» في بطنها جنينًا بعد ستة عشر عامًا من زواجها، ربما كان الأمر ليكون مفرحًا لو حدث في عام آخر، لكن العام هو ١٩٤٨م، وعلى الابن الأكبر أن يرحل في صفوف الجيش.. وقد كان.

أسابيع طويلة مرت على رحيله دون أن يتمكن من مراسلتهم، بعدها وصل أخيرًا الخطاب المنتظر. أغلقت «أمل» على نفسها باب الغرفة. رشَّت عطره في الهواء وراحت تقرأ:

- أبي وأمي الأعزاء، «أمل» الحبيبة..

أكتب لكم الآن بعد أن تمكَّنت من التوصُّل إلى طريقة أرسل بها خطابي إليكم. الأمر ليس سهلًا، وليس مسموحًا بشكل رسمي، لكن هناك دومًا بدائل للقيام بمثل تلك الأمور. أنا الآن في العريش. نتمركز أنا وكتيبتي في انتظار الأوامر، وأغلب الظن أنها ستكون بمواصلة الطريق نحو حدود غزة. أنا بخير حتى الآن. أحاول بقدر ما أستطيع استجماع شجاعتي وأملي في النصر، وقد كنت وصلت إلى حالة من الاستقرار والثبات حتى ليلة أمس..

كان مساءً هادئًا شديد الإظلام، والظلام في الخلاء مختلف عن ظلام المدينة. شعرت أني أجلس على حافة العالم، وأحدِّق في العدم. أصيخ السمع فلا أسمع سوى الصمت. إلى أن كسر الصمتَ صوتٌ غريب، وكأنه آتٍ من عالم آخر. صوت طفل رضيع يبكي ويصرخ ويدوي صوته في الفضاء من حولي. تساءلت وتساءل بقية العساكر:

«كيف يمكن لطفل رضيع أن يوجد في هذا المكان القفر؟ ولماذا؟».

كانت الأوامر واضحة، على كلٍّ منا أن يبقى في مكانه، ولا يغادر فرد موضعه مهما حدث؛ فالأمر مريب، وربما كان فخًّا ما، المقصود به تشتيت انتباه الحرس المسؤولين عن حراسة المعسكر. تجاهلت الصوت، وتجاهله الآخرون، وبقي الرضيع يصرخ حتى مطلع الفجر. لم أفهم تحديدًا لماذا أزعجني بكاؤه إلى تلك الدرجة. تمنيت لو يصمت قليلًا حتى أستعيد تركيزي. دعوت الله أن ترضعه أمه فيتوقف، لكنه استمر في البكاء..

«تُرى أين أمه؟».. تساءلت..

ومع مقدم النور حلَّ الصمت من جديد. لم يبقَ في الأفق سوى صوت الرياح تصفر بين الخيام، وهمهمات الجنود المتناثرين بينها. انتهت ورديتي، وحان وقت الاستراحة، وكان عليَّ أن أقضي حاجتي، فتمشيت قليلًا مبتعدًا عن المعسكر، واتجهت صوب بقعة خضراء بها بضع نخلات عجاف متجاورات، وعندما وصلت، اقشعرَّ بدني لما رأيت.

كانت تجلس تحت جذع النخلة امرأة ميتة، بعينين مفتوحتين، ورأس يميل نحو كتفها اليمنى، يغطيه وشاح أبيض ناصع. ساقاها منفرجتان تمامًا، وبالكاد يغطي طرف ثوبها أعلى فخذيها المخضبتين بالدماء. دماء كثيرة، سائلة ومتخثرة ومتكتلة كقطع الكبد، حتى إن الأرض تحتها اصطبغت باللون الأحمر المسود. لا أذكر أني شعرت طول عمري بفزع مماثل، تلك النظرة الجامدة على وجهها وتلك الدماء كلها، ثم فجأة تذكرت صراخ الطفل بالأمس. حدَّقت في ثيابها الملطخة بالدم وفكرت: تُرى.. هل يمكن أن يكون طفلها؟

تحاملت على نفسي واقتربت منها، فتأكد لي ظني. رأيت ثوبها يتحرك بين فخذيها، حركة سريعة وغريبة، ففكرت في أنه بلا شك طفلها. بالتأكيد ولدته بالأمس وماتت؛ لذلك كان صراخه مستمرًّا بلا انقطاع، وبالتأكيد هو الآن تعب من كثرة البكاء، وربما أوجعه حلقه فاكتفى بتحريك جسده الصغير دون أن يصدر صوتًا. كان الأمر مهولًا، لكني أجبرت نفسي على الاقتراب، وبهدوء.. رفعت طرف الثوب، لأجد ما لم يخطر ببالي قط..

انتفضتُ راجعًا للوراء وتعثرت بشيءٍ ما فانطرحتُ أرضًا، وهب في وجهي عدد كبير من الفئران الصحراوية السوداء.

كانت الفئران تلتهم الرضيع بين فخذي أمه الميتة!

وعندما اقتربت فرَّت.

بكيتُ ثم تقيأتُ كثيرًا، وتذكرتُ بكاء الطفل من جديد، تراه كان يستنجد بنا من تلك الوحوش؟!

بعدها استأذنتُ قائد الكتيبة، واستعنت ببعض العساكر لدفن المرأة وما تبقَّى من طفلها. انقبضَتْ قلوبنا، وخيَّم الحزن على الجميع، ورأينا في الأفق هولًا قادمًا. لم يكفّ كل من سمع الصوت عن التساؤل:

«ترى.. هل كان بإمكاننا إنقاذ الصغير؟»».

* * *

كانت نهاية الرسالة غريبة. لم يودِّع فيها أحدًا، ولم يتمنَّ الأمنيات الطيبة للجميع كما هو معتاد في نهايات الرسائل. وكأنه كان يحدث نفسه

ثم انتهى فصمت، واستمر صمته بعدها إلى الأبد. لم تصل إليهم بعد ذلك أي رسالة منه، فقط خطاب رسمي من قائد كتيبته يبلِّغهم فيه بخبر استشهاده.

* * *

إنها صدمة أكبر من أن يحتملها عقل. كيف يمكن للحياة أن تكون بتلك القسوة؟ كيف يمكن لشخص مثل «أمل» أن يحتمل هذا التتالي المرهق لمأساة بعد الأخرى؟ لكن البعض خُلق ليتحمَّل. لم تصرخ ولم يسمع أحد صوت بكائها، سوى سترة «مراد» العبقة برائحته، التي كانت تدفن وجهها فيها وتجهش بالبكاء. لم يتمكن أحد من التخفيف عنها، فالكل مكلوم.

لبس بيتهم ثوب حداد لم يتمكن من خلعه؛ فالفقيد هو البكر الرصين الحنون، الذي كان ظهرًا قويًا يستند إليه كل مَن بالبيت، إلا أن كلًّا منهم يسلك في الرثاء مسلكًا مختلفًا عن الآخر؛ فحزن البعض موت، وحزن البعض غضب، وحزن البعض الآخر جنون وفقدان للمنطق. وقد كان أن مورست تلك الطقوس كلها تحت سقف واحد. اجتمع الجميع في الأتون ذاته، منهم من يحترق، ومنهم من يحرق، ومنهم من يصرخ من الخوف والوجع.

ـ لقد مر ما يقارب الأربعة أشهر على استشهاد أخيك.

ـ أجل يا أبي.. ثلاثة أشهر وعشرون يومًا.

ـ أوشكت «أمل» أن تنهي مدة عدتها، ولن يمر وقت طويل حتى ضع مولودها.

لم يرد «جمال» لأنه لم يفهم ما يرمي إليه أبوه، فأردف الرجل:

ـ لقد فكرت كثيرًا في وضعك أنت و«أمل»، وتوصلت لقرار هو الأصلح للجميع بعون الله.

ـ قرار بماذا يا أبي؟

ـ عندما مات «مراد»، كنت على وشك التيقُّن من أن بيتنا الكبير موشك على الانهيار.. أنت تعلم جيدًا ماذا كان يعني لنا جميعًا، لكن بعد فترة، أدركت أن لله حكمة في حمل «أمل» بعد ستة عشر عامًا كاملة، في هذا التوقيت بالذات. إنه «مراد» جديد يا «جمال»، قُدر له أن يبقى بعد أن رحل الآخر.

ـ فلنحمد الله إذًا.

ـ الحمد لله على كل شيء.. المهم.. ما أريد قوله هو: إنني وأمك صرنا عجوزَين الآن، ولن يُكتب لنا أن نرعى طفلنا الوحيد ونطمئن عليه قبل موتنا.

ابتسم بعينين رطبتين قائلًا:

ـ الوحيد؟

ـ لا أقصد هذا، أنت لم تعُد طفلًا. أنت الرجل الذي قُدر له أن يحمل بيتنا فوق كتفيه بعد أن أسقطه «مراد» ورحل.

ـ أنا أحمل نفسي بصعوبة حاليًا، ماذا تريدني أن أحمل أيضًا؟

ـ «سليم».. «سليم» يا «جمال».

ـ بارك الله لكم فيه يا أبي، الغالي ابن الغالي. أنا أثق بأنكم ستربونه كما يجب ليصير ولدًا صالحًا كأبيه، وسوف أقوم بواجبي كاملًا، وأحرص على ألا يشبهني في شيء. سيحمل ابن «مراد» حطامكم على كتفيه مع حفاضاته الطاهرة، ويجمعكم في كنفه وكنف ذكرى أبيه ليستمر بيتنا قائمًا مغمورًا بالحب والفرح.

ـ لم تخلف ظني فيك قط.

ـ ولن أخلفه أبدًا يا أبي الحبيب.

ـ حسنًا.. كالعادة لا يفيد النقاش معك شيئًا. إليك ما توصلت إليه بعد تفكير طويل ومُضنٍ. أنا وأمك لن يسعفنا العمر لتربية «سليم»، و«أمل» امرأة وحيدة ومقطوعة من شجرة. ليس لها سوانا، أنا وأمك.. وأنت. وعندما نرحل نحن، لن يبقى سواك.. هل تفهمني يا «جمال»؟

ـ لا في الحقيقة.. لا أفهم شيئًا ممّا تقول.

ـ «سليم» و«أمل» يحتاجان إلى أسرة، وسوف تكون أنت تلك الأسرة...

ـ ما زلت لا أفهم، وبصراحة بدأت أشعر بالملل.

ـ سوف تتزوج «أمل» يا «جمال».. يجب أن تجمع شتات هذا المنزل حتى لا يضيع ما تبقى منه.

حدج «جمال» أباه بنظرة طويلة غير ذات معنى، ثم انفجر ضاحكًا. اغرورقت عيناه بالدموع دون أن تنقطع ضحكاته الصاخبة. تناقضت ملامح وجهه حدَّ الغرابة، حتى لم يعُد هنالك من تفسير لها سوى

الجنون. لم يقاطعه أبوه، انتظر حتى يهدأ ليكمل حديثه، وعندما هدأ، وراح يمسح دموعه بكفه المرتعشة، بادره بسؤال من المفترض أن إجابته معروفة بداهة:

ـ ما رأيك؟

قال ضاحكًا، أو باكيًا، أو كلاهما معًا:

ـ ما رأيي؟ هل تسألني عن رأيي في الزواج من زوجة أخي؟ من أختي؟ التي تكبرني بتسعة أعوام؟ الحامل؟ القبيحة؟ البدينة؟ الأرملة؟ هل تسألني عن رأيي في الزواج من أخت «أشجان»؟ أخت «أشجان» يا أبي؟ وكيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف؟ أخبرني أنك تمزح أرجوك.. أخبرني لأضحك حتى اليوم التالي على تلك الطرفة السخيفة.

ـ تأدَّبْ يا ولد.. كف عن تلك المسخرة وكُن رجلًا.. رجلًا كأخيك الذي كان مثلا للرجولة، تخلص من أنانيتك للحظة وفكر في الآخرين، حاول أن تتخطى هلاوسك الحمقاء وضعفك الطفولي، وكُن رجلًا قادرًا على الرغم من كل شيء على تحمُّل مسؤولياته. لقد صارت «أمل» جزءًا من هذا البيت، وتحمل في أحشائها حفيدي، ابن «مراد».. ابن «مراد» يا «جمال».. هل تفهم؟

ـ لا، لا أفهم.

ـ حسنًا، هل ستفهم إذا قلت لك إني سأكتب كل ما أملك باسم «أمل» و«سليم» بعقود بيع وشراء؟ لم أكُن أتمنى أن يصير الرابط بينكم هو الإرث، لكن إن اضطررت لهذا، فسأفعل بمنتهى البساطة.. هل تفهم الآن يا ولد؟

قام من جلسته وأمسك المزهرية ثم ألقى بها بعنف حتى تهشمت على الجدار المقابل، وأردف وهو يخطو بتؤدة:

ـ لا، لا أفهم يا أبي.. أنا لا أفهم.

وقبل أن ينبس الرجل، أردف «جمال» وقد انفجر ضاحكًا من جديد:

ـ أنا أتزوج من أخت «أشجان»! يالها من نكتة قبيحة.

* * *

أوشك «جمال» على السقوط. قُبض عليه مرتين بعد أن انهال ضربًا على غرباء في الشارع، وتسبب لهم في أذى بالغ، وفي كل مرة كان أبوه يتكفل بتسوية الأمر ماليًّا، حتى لا يُسجن ابنه بتهمة ارتكاب جنحة. وصل جنونه إلى أقصاه، حينما اقتحم على «أمل» غرفتها في أثناء إرضاعها للصغير، وأبرحها ضربًا قبل أن يتمكن أحدٌ من الوصول إليها وتخليصها من بين يديه، وحينما أفلتت أخيرًا، أمسك الصغير من ملابسه، وألقى به على الفراش، وهو يصيح ويسب بأقذع الألفاظ. أصيب الجميع بالذعر، وانهارت «أمل» تمامًا أمام هذا الوحش القبيح المفترض أن تتزوج به في أقرب فرصة. نُقل الصغير وأمه للمستشفى، وظل «جمال» هائمًا على وجهه في الطرقات، بلا وجهة ولا هدف.

ترى أين «أشجان» الآن؟

أين هي ليخبرها أنه يحبها حد الجنون، وأنه لم يحب شخصًا في حياته سواها، حتى أمه وأباه وأخاه؟ أين هي ليخبرها أنه ليس السبب في هذا كله؟ يستحيل أن يكون السبب. أين هي ليحكي لها عن قبح العالم

وقسوته، وعن استحالة الاستمرار فيه؟ أين هي ليجبرها على البقاء بجواره، جبرًا عنيفًا لا يتمكن من مجابهته شيء؟

ـ أين أنتِ يا «أشجان»؟

تساءل كثيرًا فلم يلقَ إجابة عن أيٍّ من أسئلته، ولم يجد الراحة سوى في الخمر.. الكثير من الخمر.

كان الحاج «أبو مراد» شاهدًا على انهيار «جمال»، موشكًا على فقدان لبنة أخرى من بناء أسرته، ولم يجد لهذا حلًّا سوى بالمزيد من الضغط عليه حتى تتم زيجته بـ«أمل»؛ فهي بنت أصول وطيبة، وستتمكن من احتوائه على الرغم من كل شيء. سينسى معها ومع «سليم» الصغير «أشجان»، وسيتخلص من حماقته ورعونته ونزقه. سيصير رب أسرة ورجل عائلة، وربما يصبح يومًا ما «مراد» جديدًا، بدلًا من ذاك الذي رحل على غفلة منه قبل أن يحتضنه بقوة ويمنحه وداعًا لائقًا حميمًا. قبل أن يخبره أنه ابنه الأثير الذي يثق به ثقته بنفسه وأكثر. قبل أن يراه وهو يداعب وجنتي «سليم» ويقبل قدميه الناعمتين ويبكي.

لماذا رحل قبل ذلك كله؟ لماذا؟

غادر مكتبه المعتم، وتوجَّه صوب الحائط المزروع بصور العائلة. جال ببصر شحيح يطل من خلف عينين دامعتين بين الصور، ثم نزع عن الحائط صورة زفاف «أمل» و«مراد»، وبعدها بدَّل صورته المعتلية الجميع مع أخرى لـ«مراد»، حتى يصير الشهيد في مكانه اللائق الذي يستحق. تقهقر للوراء قليلًا وعاد يتأمل الحائط، وفوق وجهه نظرة غريبة هي مزيج بين الحزن والغضب والحسرة والاعتراض:

ـ ليته كان...

راودته الفكرة ولم يجرؤ على صياغتها في كلمات.. ظلت كامنة في صدره غير مصرح بها جهرًا. فقط اقترب من الحائط، وانتزع من عليه صورة «جمال»، ثم ألقاها أرضًا.. ومضى إلى غرفته.

رحل «أبو مراد» بعد أن تمت الزيجة بشهور، و«جمال» تداعى كجدار قديم تحت وطأة الخمر والكآبة والغضب. حرَّم على نفسه «أمل»، وأحلَّ لنفسه كل نساء العالم. لم يحاول تعويض سنته النهائية في الكلية التي رسب فيها بسبب الظروف التي مرَّ بها. ومر عام بعد آخر دون أن يقدم اعتذارًا رسميًّا، حتى فُصل من الجامعة. ولأول مرة اكتشف أنه وحيد تمامًا، لا رفيق له ولا صاحب. كانت «أشجان» صديقته الوحيدة، حتى أسرته لم يكُن أحد منهم يتحمله، وأبوه.. لم يكُن يراه..

ها هو ينظر في المرآة الآن، ولا يرى نفسه. لقد رحل نصفه الملون الغض الذي أحبه حد الجنون، حتى نصفه الآخر الذي يكرهه ويكرهه الجميع، يبدو أنه رحل هو الآخر. كل الغضب والثورة والتمرد التي حركته بلا وعي طول حياته غادرته، ولم يبقَ سوى جسد ثقيل وعقل منطفئ. في البداية ظن أن إفلاسه هو ما أجبره على البقاء، لكنه أدرك بعدها أنه لم يكُن السبب الوحيد.

صار يقضي أغلب وقته في المواخير والطرقات، ثم يعود للمنزل.. يتسلل لغرفة «سليم». يظل يحدق في وجهه بالساعات. يتحسس رقبته الصغيرة، ثم ينتزع كفه من عليها انتزاعًا. يبكي الصغير فلا يجد أمامه

سوى ذلك الوجه المتجهم المؤطر بظلام الغرفة. وكأنه هو مبعث الظلام، يتقاطر من جسده المنهوك ويتصاعد كالبخر الأسود من رأسه.

* * *

(٢)

«سليم»

هي الذكرى الأكثر وضوحًا في عقلي على الإطلاق. أذكر ملمس حافة النافذة الخشبي تحت قدميَّ الحافيتين. أذكر النسمة الباردة التي اخترقت القيظ ومسحت على وجهي ثم مضت. أذكر مواء القط في الأسفل، وصوت خطواته فوق أكياس سوداء ملقاة على الطريق. أذكر خشونة الحجر تحت أصابعي، واصطكاك نافذة ما في المبنى المجاور. أذكر أصداء الأصوات الخفيضة الهائمة في الشارع الخالي، وما أثارته في قلبي من وحشة لا تُحتمل. أذكر الفكرة التي لطالما ربضت في سكونٍ في زاويةٍ ما في نفسي، حينما نَهَضَت وخَطَت بخطوات ثقيلة، ثم اقتَرَبَت شيئًا فشيئًا من بؤرة وعيي وصميم إحساسي.. فكرة الموت، الخلاص من هذا كله في لحظة واحدة.

ليتني أملك غير تلك الطريقة لأفنى. ليتني أستطيع أن أنسلَّ بهدوء

من ذاكرة أمي وأتلاشى في الفراغ. أعبث في عقلها وأجمع منه كل ما يخصني ثم أحزمه في حقيبة كبيرة، وأرحل به إلى العدم؛ حيث اللاشيء الجميل. لكن الأمر لا يمكن أن يتم بطريقة مغايرة.. وأنا لم أعُد أستطيع المكوث أكثر.

إنهم في كل مكان.. حينما رأيتهم يتغوَّلون في الشوارع وفي مدرستي الثانوية، يزحفون على الأشجار وواجهات البيوت، يرتفعون في السماء كالبخر الأسود ويحجبون نور الشمس، انسحبت إلى منزلنا وقررت أن يكون هو المأوى والملجأ من هذا الفزع كله، لكنهم في المنزل أيضًا. يتصاعدون كالدخان إلى الأسقف، ويتساقطون منه على رؤوسنا. أراهم على وجه أمي، يخرجون من عينيها ويتسللون إلى أذنيها. أراهم ينفجرون من فم عمي «جمال»..

إنهم في كل مكان.

تقهقرتُ مرة أخرى للوراء وأغلقت باب غرفتي، لكنهم لا يكفون عن التسرُّب من شقوق الباب والنافذة. ربطت عصابة عريضة على عينيَّ. محوت من أمامي العالم بأكمله لينمحوا، وقد كان.

يومًا.. اثنين.. ثلاثة..

أغوص وحدي في ظلام كالعدم.. لكن الظلام لم يبقَ طويلًا.. وتلك الفتاة، هنا معي في غرفتي. نحن نعيش وحدنا أنا وأمي وعمي «جمال» في هذه الشقة الفسيحة، لا يزورنا أحدٌ أبدًا. وباب غرفتي مغلق بالمفتاح، لقد أحكمت إغلاقه، أنا متأكد من هذا. لكن الفتاة معي، تبكي وتنهنه وتستغيث:

ـ ساعدني... تقول

أحيانًا تلمس كفي فأنتفض وأتكوَّر في أبعد موضع عنها. والعصابة على عيني، صارت آخر خط دفاع بيني وبين شيء رهيب، لا أعرف ماهيته، لكني متأكد من فظاعته. لم أعد أذكر آخر مرة حاولَتْ أمي فيها الدخول، ولا آخر مرة تناولت فيها الطعام. لقد كنتُ أحاول تجويع جسدي لعلَّه يترك روحي وشأنها ويرحل، لكنه أبى.

والظلام.. احتلته الرؤى.. الفتاة التي تسكن غرفتي صارت تسكنني. لقد رأيتها في عقلي. لم أميِّز ملامحها، لكني أذكر جيدًا فمها المفتوح المحشو بهم، بقطع الظلام اللعين، وصوتها يستجديني من ركن الغرفة:

ـ ساعدني، أرجوك.

إلى أين أتقهقر الآن؟

إنهم في كل مكان..

حتى عقلي.

الآن حينما أتذكَّر تلك اللحظة وأنا أقف هناك على حافة النافذة، أعرف أنه لم يكُن قرارًا؛ فالقرارات تؤخذ في ظروف مغايرة. كان شيئًا كالولادة، انتقالًا حتميًا من طور لآخر في لحظة مقدرة سلفًا، لحظة مؤلمة وغريبة. تغادر فيها الظلام نحو عالم مجهول تمامًا. لحظة لا مفر منها بأي طريقة ممكنة. أغمضتُ عينيَّ وانزلقت..

في البداية، شعرتُ بألمٍ لا يُطاق، لا يشبه أي شيء أحسسته من قبل، لكن ما لبث الألم أن زالَ. انتظرت أن أغيب.. أن أذوب في الظلام،

لكن شيئًا من هذا لم يحدث. كنت أسمع كل صوت حولي. في البداية لم تكُن هناك ضجة، فالشارع خالٍ ومعظم الناس نائمون، فقط القطة تقترب والأكياس وأوراق الشجر تتطاير من حولي، لكن الوقت مضى، وبدأ الصراخ. صراخ غريب، ثم صراخ أمي ونواحها.

ـ حتى الآن يقتلني بكاء أمي؟ في لحظات احتضاري؟ أهكذا يكون الاحتضار؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ألم أمُتْ بعدُ؟

تساءلتُ.

أذكر أنني كنت أغرق شيئًا فشيئًا في الضجيج، حتى إني لم أعُد أستطيع تمييز الكلمات والأصوات. الظلام الذي كان ملجئي الوحيد فَقَدَ قدرته على الفصل بيني وبين العالم، فالعالم بأكمله في أذنيَّ الآن.. وفي المستشفى، انقشع الظلام تمامًا، وجدتني أرى كل شيء كالسابق: الأطباء والممرضات، المرضى ومصابو الحوادث، وأمي..

لكن لم يكُن هذا كل شيء رأيته في استقبال المستشفى، فقد كانوا هناك، في كل مكان..

لا أستطيع أن أجزم بما حدث معي في الفترة اللاحقة. لم أعُد أميِّز بين اليقظة والغيبوبة، بين فترات التخدير والنوم. كنت أنتقل فجأة من مكان لآخر، ومن غرفة لأخرى. يحدِّثني أحد الأطباء ثم يكمل الحديث ذاته طبيبٌ غيره. كل التفاصيل تتغير بتسارع رهيب من حولي، وكأن واقعي يتدحرج من قمة جبل لا نهاية له، لكن الأمر لم يستمر طويلًا، أو استمر، لا أستطيع الحسم. المهم أن العالم كفَّ عن التدحرج، واستقر أخيرًا.. في قاع الجحيم!

لماذا أزالوا العصابة من على عينيَّ؟ من أعطاهم حق فتح تلك البوابة الجهنمية أمامي؟ وأنا عاجز حتى عن تحريك كف يدي المهشمة للدفاع عن نفسي. لقد عدت أراهم في كل مكان، حتى عندما أغمض جفوني لم يختلف الأمر في شيء. لقد تخطى بصري كل الحدود الممكنة وصرت أرصد كل التفاصيل بشكل متصل، في يقظتي ونومي، حينما أنظر وحينما أغض البصر. لكنهم لم يبقوا على حالهم، كل ما رأيته في السابق لا يقارَن بما آل إليه الأمر بعدها.

في ليلةٍ ما، بعد أن غادر الجميع عنبر المستشفى، أمي والأطباء والممرضات، وتركوني وحدي مع مريض غائب عن الوعي.. ومعهم.. لاحظت حركة غير معتادة في المكان. هم لا يربضون ويتربصون كالمعتاد. لا يزحفون ببطء على الحوائط والأثاث. وكأن هبات من الهواء الغاضب اقتحمت العنبر وراحت تصارعهم ويصارعونها. يتحركون بجنون في دوامات صغيرة تتنافر ثم تتجاذب ثم تندمج لتصير أكبر. أغمضت عينيَّ لكن شيئًا لم يتغير..

مازلتُ أرى..

وفي النهاية، تداخلوا جميعًا مكونين ذلك الكيان الهلامي العجيب. لأول مرة أبصر الحوائط والأسقف خالية منهم تمامًا. لقد اجتمعت كِسَف الظلام جميعها في جسد واحد.

جسد.. أجل لقد صار كذلك. استمر في التشكل والتصلب حتى أصبح جسدًا شديد الضخامة بحجم رجل ونصف رجل متراكبين.. مظلم تمامًا، لا وجه له ولا تفاصيل، وكأنه ثقب أسود على شكل إنسان.

يقف قبالتي تمامًا، يحدق بلا عيون، ويبث في صدري الهول دون أن يتحرك.

يا إلهي.. ما هذا؟!

مرَّ المساء دون أن يمر ذلك المشهد. لولا بصيص النور الذي جلبه الفجر للعنبر، والذي لم يلبث أن يزداد سطوعًا مع مجيء الصباح، لَمَا عرفتُ أن الحياة ما زالت مستمرة، وأني ما زلتُ من سكان سطح هذه الأرض. بدأ الناس يتوافدون. في البداية الممرضات، ثم أمي، ثم الأطباء، يجيئون ويذهبون ويعبرون حوله وخلاله وكأنه غير موجود، لكنه موجود أكثر من أي شيء آخر.. وهو يتحرك بثقل مخيف بينهم، يمسح على رؤوسهم ويتحسس أعناقهم، يحتضنهم بعنف ويمر من خلالهم فتتداخل صورتهم مع صورته لأرى ما هو أكثر من كليهما..

وأكثر ممَّا أستطيع احتماله..

وفي نهاية كل يوم، يجلس على حافة الفراش، مقتبلا وجهي. يميل برأسه المظلم قليلًا تجاهي ويصدر عنه الصوت ذاته..

صوت الفتاة الباكية التي تطلب مني إغاثتها.

* * *

ذات يوم، أخبر الطبيب أمي أنه لا جدوى من بقائي في المستشفى، وأن نجاتي صارت رهن رحمة الله ودعائها لي. انهارت، سقطت على قدمي الطبيب، تعلقت بساقه وتوسلت إليه أن يفعل شيئًا. قالت: ليس لي سواه، فقال إن الأمر ليس بيده. وبالفعل جاء موعد مغادرة

المستشفى سريعًا. نقلوا جسدي في سيارة إسعاف، ثم حملوه وارتقوا سلم عمارتنا في الجمالية. أمي واثنان من المسعفين.. وهو.

يتقدمنا جميعًا بجسده العملاق المصنوع من معجون الظلام. أحيانًا يغرق وعيي تمامًا في سواده التام، وأحيانًا أخرى يشف جسده فأرى من خلاله الأشياء كما لم أرَها من قبل. عندما مر بجوار الحوائط ورأيتها عبره، وجدت أن الشقوق عليها ليست سوى ديدان، آلاف الديدان كانت تنخر في جسد منزلنا العتيق. منذ متى يا تُرى مات هذا البيت لتعيث الديدان السوداء فسادًا فيه؟ هل قُتل؟ من القاتل إذًا؟

كان صعودًا بطيئًا بلا مبرر واضح. أظن أن معايير الزمن اختلفت حينها عمّا هو معتاد، ومعايير الأماكن كذلك، فأنا مستلقٍ على ظهري، وعلى الرغم من هذا أرى كل ما هو موجود من جميع الزوايا. لا أدري كيف، ولم يعُد يشغلني الأمر كثيرًا.

وصلنا إلى الطابق الرابع، حيث تقع شقتنا. كنا قبالة الباب، لا يحول بيننا وبينه سوى الجسد المظلم، وعندما فتح عمي «جمال» الباب رأيته من خلاله. كان متآكلًا كجثة، وفي رقبته تتعلق امرأة ذات بشرة زرقاء وعروق نافرة. تلصق فمها المفتوح بأذنه وتشهق. تخمش صدره بأظافرها وتسيل المياه من جسدها المرتخي وثوبها الأزرق المهترئ. لم يُطِل الوقوف على عتبة الباب. تنحّى جانبًا مفسحًا لنا طريقًا للدخول وألقى على جسدي نظرة واحدة ثم مضى نحو مكمنه المعتاد في المكتب، وخلفه على الأرض مياه يسودُّ لونها شيئًا فشيئًا، وتنجذب للجسد المظلم كالمغناطيس، ثم تصير جزءًا منه.

(٣)

«أمل»

تبكي بلا صوت. تدفن رأسها في الوسادة وتصرخ إلى أن يُبَحَّ صوتها. تتأكد من إغلاق الباب بالمفتاح، وتتسلل نحو خزانة الملابس. تخرج صندوق الحلي وتتلمس الصور بداخله:

ـ «مراد».. أين أنت؟

تقول وهي تحتضن صورته بأصابعها، تتمعَّن في ملامحه الصغيرة، تحفظها جيدًا، فلا ينبغي لها أن تنساها أبدًا، ثم تعيدها إلى الصندوق وتغلق الخزانة.

كيف مرت تلك السنوات كلها؟ كيف كبر «سليم» وصار شابًا جميلًا في هذا المنزل المظلم؟ على الرغم من مرور الأيام والساعات والدقائق ببطء قاتل، فإن نظرة واحدة في وجه «سليم» تجعلها تصدق أن مجرد وجوده في هذه الحياة هو معجزة، وبقاءه فيها لتسعة عشر عامًا

معجزة أخرى لا تقل عن الأولى في شيء؛ فـ«جمال» لا يُحتمل. هو ميت منذ أكثر من عشرين عامًا. يتحلل بينهم ببطء. تفوح رائحته وتتساقط نفسه الميتة في زوايا المنزل فيلوثها بها. شيء ما مظلم سيحدث في يوم قريب، كانت متأكدة.. وقد كان أن سقط صغيرها الوحيد من على حافة النافذة.

كانت المرة الأولى التي تصرخ فيها بصوت مسموع بعيدًا عن الوسادة. هرولت على السلم، تعثرت، سقطت، ثم قامت وتابعت النزول. رأته هناك ملقى تحت البناية. شعرت بأن البناية تضحك بصوت أجش، فعاودت الصراخ حتى أغشي عليها.

لم يُجدِ العلاج شيئًا. مكث «سليم» في المستشفى أكثر من أسبوعين، ثم قرر الأطباء أن بقاءه بلا جدوى، وأن نقله للمنزل والاعتناء به هناك هو الخيار الأصوب. وافقت «أمل»، و«جمال».. لم يكُن موجودًا.

حملته سيارة الإسعاف إلى البناية ذات الصوت الأجش بحي الجمالية. البناية التي شهدت من الموت أكثر ممَّا شهدت من الحياة. شعرت بالقشعريرة تسري في أطرافها وهي ترتقي السلم إثر المسعفين. بدت لها الشقوق على الجدران مقبضة ومخيفة لسببٍ لا تعلمه. أدخلوه غرفته ووضعوه على الفراش ورحلوا.

بقيت وحدها مع جسده المرتخي الساكن. لطالما كان «سليم» صامتًا، يسمع ويرى أكثر ممَّا يقول، ويراقب أكثر ممَّا يفعل. جالت ببصرها بين جدران الغرفة. تلك هي صومعته التي انعزل فيها عن الحياة بأكملها، وهذا هو الباب الذي كان يفصل بين عالمه الكئيب وعالمهم الأكثر كآبة.

تلك هي كتبه الدراسية التي يكرهها، والتي أجبر جبرًا على قراءتها وحفظها، وتلك.. تلك هي النافذة التي لفظته. التفتت بسرعة نحو الباب. وجدت «جمال» واقفًا يحدِّق بالفتى، صامتًا كما كان يفعل دائمًا معه منذ كان رضيعًا في مهده. أطال النظر ثم مضى نحو مكتبه. أغلقه عليه ثم انطفأت الأضواء بداخله. فاحت رائحة الدخان، ثم ارتفع صوت موسيقى «الفالس».

بكت.. مسَّدت رأس صغيرها وتساقطت دموعها على جبينه. أرخت رأسها على صدره وغابت في غفوة قصيرة مضطربة. لم تكُن قد نامت لأكثر من يومين. كان يمكن أن تظل على وضعها لساعات طوال، لكنها غادرت الغرفة مسرعة وراحت تحوص في أرجاء المنزل، لعلَّها تعثر على ركن وحيد يمكنها أن تشعر فيه بالطمأنينة. ركن بلا ذكرى سيئة، لكن لا.. لا يوجد في البناية الميتة سوى الحزن يلطخ الجدران، والصراخ المدوي في رأسها.

(٤)

«حسين»

لماذا لا نطير؟

هل لأننا حقًّا لا نستطيع، أم لأن أحدًا لم يعلمنا كيفية الطيران عندما كنا صغارًا، بجلود طرية يمكن أن تنبت منها الأجنحة؟ الآن جلودنا جافة وقاسية. الآن نحن أثقل من الهواء، وأثقل من الماء، وأثقل من الجنون. معركتنا معهم خاسرة ومثيرة. وأنا الآن.. شيء ما يدفعني دفعًا نحو تحدي المياه. أبصر شاطئي النيل عن يميني وعن يساري، ثم أغض عنهما الطرف وأستمر في السباحة مع التيار نحو وجهة أجهلها. صدري يضطرب وتتخلل المياه أنفي وفمي فأشهق، وأشعر في شهيقي باقتراب ما من الموت..

أو من الحياة.

شغفي لا يوصف بتجربة كليهما، هنا والآن. أشعر أني أقف على حافة

عالم لا يسعني وأوشك على القفز خارجه. الإثارة تعتريني، والفرحة تغمرني، والفضول يدغدغ عقلي، إلا أن جسدي لا يعرف طريقة العبور. أعود وأشهق من جديد، تكاد قواي تخور، إلا أنني أرفض التوقف. شخص ما يصيح فيِ من قارب فأتجاهله وأواصل السباحة، حتى بدأ الخدر يستشري في عضلاتي، وصرت أبطأ فأبطأ، إلى أن فقدت الوعي ورحلت.

أفقت على الشاطئ وسط مجموعة من الصيادين في الجيزة. لم يصدقوا أنني قطعت تلك المسافة سباحة من شبرا إلى هنا. دثروني ببطانية قديمة، وأعدوا لي الشاي الساخن. طيبون، ويحتمل أن يكون مجلسهم جميلًا ودودًا، لكني لا أستطيع البقاء. شكرتهم واحتضنت أحدهم ثم انطلقت كالسهم مبتعدًا. ركضت وسط السيارات.. نحو مكان ما لا أدري ما هو.

أين يمكن أن أذهب؟

هل أسافر لبلد آخر، أم أعرج نحو الله في السماء؟

كل ما أعرفه أنني لا أقوى على البقاء، حتى في بيتي. ربما مر يومان أو ثلاثة لم أبِت فيهم في شقتي. لا أذكر بالضبط؛ فأنا لا أنام، فقط أغفو ساعة أو بعض ساعة كل دورة شمس، وخلال أيامي تلك، أركض في شوارع القاهرة، وأنام في مساجدها القديمة. مسجد الحاكم بأمر الله هو المفضل لديَّ، فيه من السكينة والطمأنينة ما لا يتناسب تمامًا مع دموية صاحبه وفسقه وقسوته. غريب.. ربما تحمل الأماكن أرواحًا مستقلة بعد أن يبنيها أصحابها، كالأب والابن، روحان وشخصان مستقلان وغير متطابقين.

بالأمس، أو قبل الأمس، لا أذكر، تسلقت الهرم الأكبر. كان الأمر شاقًّا وجميلًا. صارعت على قمته بضراوة رغبتي في القفز، لم تكُن رغبة بل كان احتياجًا. عندما نظرت للأعلى وأبصرت السماء أقرب، أخبرني عقلي أن الله بعيد جدًّا، وأن بيننا كونًا كاملًا، ولن أتمكن من العروج إليه مهما حاولت، إلا أن قلبي أخبرني أن الله أقرب إليَّ من وريدي، ولا يفصل بيني وبينه سوى إغماضة عين، وقفزة نحو الأعلى.

ـ ماذا أفعل؟

تساءلت.. ثم قررت أن الوقت لم يحِن بعدُ. لكمت وجهي وهبطت، ثم استكملت مسيرتي المبهمة نحو الشيء الذي لا أعرفه. تحسست جيوبي الفارغة وأدركت أنني استنفدت كل ما أملك من أموال. لم أخَف من الموت جوعًا؛ فالموت مغامرة مثيرة لا تبعث الفزع في نفسي كالآخرين، لكن شيئًا ما حدث جعلني على غير العادة أخاف وأفكر، وأحسب حسابًا للأموال وللبيت ولسلوكي المؤرق لكل الناس. لقد رأيتها.. على قارعة الطريق.

كان يومًا ممطرًا وباردًا، يسير فيه الناس بملابسهم الثقيلة. أكفهم في جيوبهم ورؤوسهم محنية للأمام لاستشعار الدفء. يثرثرون ويصمتون وينظرون إلى تفاصيل الطريق جميعها، ولا تلفت أنظارهم تلك الفتاة الملقاة على رصيف رطب في شارع قصر العيني. كانت في حوالي الثالثة عشرة من العمر، صلعاء وشاحبة وهزيلة. ترتدي ملابس خفيفة، وتحتضن حقيبة يد وبضعة كتب ومجلات، وتنام نومًا عميقًا، أو هكذا ظننت. لم أدرك في البداية أنها فاقدة للوعي، وعلى الرغم من ذلك دفعني شيء ما إلى الوقوف أمامها وإطالة النظر، ربما لأن مظهرها

لا يدل على أنها مشردة؛ فملابسها جميلة ونظيفة ومهندمة، وحقيبتها غالية، غير أن المشردين لا يحملون الكتب، ولا يتشبثون بها في أثناء نومهم. اقتربتُ منها بخطوات واثقة وسريعة. انحنيت فوقها ولكزت كتفها فلم تستجِب. لكزتها من جديد في كتفها ثم في وجنتها، وهززتها بعنف فلم تحرك ساكنًا، لكنها كانت تتنفَّس، وفي صدرها قلب ينبض. حملتها وسرت بها نحو مستشفى قصر العيني. أدخلتها بصعوبة لأني لم أكُن من أقاربها، ولا أعرف أي بيانات يمكنني ملء تذكرة الدخول بها، وهناك فحصوها وعلقوا لها بعض المحاليل فأفاقت بعد برهة. تمكَّن حينها الأطباء من سؤالها عن حالتها الصحية، وعرفوا أنها مصابة بالسرطان، وأنها كانت تعيش مع عمها إلى أن تخلَّى عنها وطردها من المنزل عندما أدرك أن علاجها سيكلفه الكثير من الوقت والمال والمجهود. حزن لأجلها الجميع، لكن شعورًا آخر انتابني أنا.

تلك روح طيبة على مشارف الموت الجميل. إنها تخطو أولى خطواتها في الرحلة المقدسة المؤلمة نحو النعيم، ويا له من أمر جلل وقدسي وعظيم. قررتُ حينها أنني سأرافق الفتاة في رحلتها. سأكون خادمها وصديقها ورفيق طريقها القصير، وسواء قضى عليها الموت أم لم يقضِ، فسيرتبط مصيري بمصيرها، لنستكشف معًا لغز الموت.. ولغز الحياة. إن كلانا وحيد، وكلانا منبوذ، وكلانا على شفا حفرة ما، عميقة ومظلمة، فلماذا لا نقف هناك معًا بأيدٍ متشابكة وننظر بثقة معًا نحو الظلام، لنستكشف سره؟

انتظرتُ انتهاء الإجراءات في هدوء حتى لا أثير حفيظة الأطباء. لقد أفاقت تمامًا الآن، واستيقظت عيناها الكبيرتان البنيتان. كان رسمهما

تمامًا كاللوزة. عينان جميلتان حقًا وسط وجه أذبله المرض وخط عليه من الغرابة والشحوب ما خط. انتظرت رحيل الطبيب والممرضات، ثم أغلقت الستائر الفاصلة بينها وبين المريضة المجاورة. رمقتني باهتمام وذكاء واضح، فجلست على طرف السرير وبدأت حديثي الأول مع رفيقتي الجديدة:

- «ندى».. هل سيبدو الأمر غريبًا إن أخبرتُكِ أنني أحتاج إلى مساعدتك؟

- أنا أساعدك؟

قالت مبتسمة، وأردفت:

- أنا لا أقوى على القيام من الفراش.. من أنت؟

- حسنًا.. أنتِ لا تعرفينني الآن، لكنه أمرٌ لن يدوم طويلًا؛ فأمامنا طريق طويل سنسلكه معًا. سأحاول أن أعرِّفك بنفسي. أنا «حسين»، عمري تسعة وعشرون عامًا. أهلي يسكنون منزلًا ضخمًا جميلًا في حي شبرا، بيتًا كبيرًا من ثلاثة طوابق وحديقة واسعة، اعتدت أن أزرع فيها أشجار الفل الهندي. كنت طالبًا متفوقًا في معهد «الكونسرفتوار»، ثم تخرَّجت فيه والتحقت بكلية الإعلام. تفوقت فيها كما فعلت من قبلُ في دراستي للموسيقى.. وبعد عام واحد، بدأ أمر ما في الحدوث، لا أدري ما هو أو كيف أصفه. فقدت اهتمامي بدراستي وبكل شيء كان يثير اهتمامي من قبلُ. صرت أقرأ صفحات متفرقة من مئات الكتب في وقت واحد، أعزف على الكمان خاصتي لساعات طويلة متصلة حتى أثير جنون كل من حولي، فأخرج للشارع وأظل أعزف عليه وسط

الغرباء على الطريق لساعات أخرى، ومع الوقت تحولَتِ الألحان إلى نشاز، ولم أعد قادرًا حتى على تذكُّر النوتات التي كانت محفورة في ذاكرتي منذ الطفولة. كنت أنقطع عن تناول الطعام وعن النوم لفترات طويلة جدًّا بلا سبب واضح. أسافر إلى محافظات بعيدة حتى أبلغ حدود الجمهورية. أذهب إلى واحات منسية في قلب الصحراء. أتسلق جبالًا لا يتسلقها الناس في العادة وأعلق فوقها إلى أن أوشك على الموت. خضت مئات المغامرات في كل مكان بمصر، ولولا عدم امتلاكي جواز السفر والمال الكافي، لكنت قد سافرت إلى أقطار الكوكب كلها، ومت وسط الثلوج القطبية، أو بين أشجار غابة استوائية، أو في قلب بركان ما. وفي أثناء هذا كله لم أكُن أفكر أو أقرر، كنت مدفوعًا إلى هذا دفعًا. ظلَّتْ أفكاري تتدفَّق بلا توقف، غزيرة ومشتتة وغير مترابطة. صار حديثي كالهُذَاء، لا يفهمه أحد، ناهيكِ عن الكثير من الحماقات التي يمنعني الحياء والخزي من أن أقر بها أمام أي إنسان.

نفر مني الجميع حتى أقرب الأقربين، حتى أسرتي نبذوني واتهموني بالفشل والانحراف وعدم تحمُّل مسؤولية كوني فردًا من أسرة محترمة ومرموقة. قرر أبي إبعادي عن المنزل، لما يثيره سلوكي من متاعب قد تؤثر على مستقبل أخواتي البنات وزيجاتهن المرتقبة. وضع تحت تصرفي شقة صغيرة يملكها في حارة بالسيدة زينب، وأخبرني بطريقته المهذبة دائمًا ألَّا أكثر من زيارتهم، وأن أتوقف عن العبث وأبحث عن وظيفة محترمة أعول بها نفسي، بعد أن فُصلت من كليتي فصلًا نهائيًّا، وفقدت قدرتي على العزف بمهارة كسابق عهدي. المهم، لن أطيل عليكِ، أعرف أنك تتساءلين الآن عن سبب ثرثرتي تلك في هذا الوقت العصيب الذي تمرين به.

أصابني اكتئاب شديد وقتها. صرت عاجزًا حتى عن القيام بأبسط الأمور الحياتية البسيطة كالنهوض من الفراش صباحًا والاستحمام وإعداد فطور لنفسي. أنام طوال النهار ومعظم الليل، وأرفض الحديث مع أي شخص كان. أكاد أجزم أني أوشكت حينها على الانتحار لفرط ما كنت أشعر به من كآبة وكراهية للحياة ولنفسي، لكن الأمر لم يدُم طويلًا. عدت من جديد إلى جنوني السابق، واعتدته واعتدت فترة الاكتئاب العصيبة التي تداهمني كل فترة، كما اعتدتِ العيش وحيدًا، والتنقُّل أسبوعيًّا من وظيفة لأخرى، لأتمكَّن من كسب قوت يومي.

المهم.. بالطبع ما زلتِ تتساءلين عن سبب رغبتي في البوح لكِ أنتِ بالذات بكل تلك القصة المملة. حسنًا.. عندما رأيتك اليوم على الرصيف شعرت أن هناك شيئًا غريبًا يخصك...

- هل أنت من أحضرتني إلى المستشفى؟

- أجل، ألم يخبروكِ؟ ومنذ تلك اللحظة حتى الآن، وأنا أفكر بلا انقطاع فيما يمكنني تقديمه لكِ، وما يمكنك تقديمه لي، وقررت أنني سأمنحك غرفة في شقتي الصغيرة، وأنني سأرافقك لجلسات العلاج بانتظام. هل تحملين معك شهادة ميلادك؟

- أجل.

- جيد.. أنتِ ذكية، سنبدأ إذًا رحلة العلاج في أقرب فرصة. سأعزف لكِ على كماني وسأمنحك ما تريدين من الكتب من مكتبتي...

- وفي المقابل؟

ـ في المقابل ستكونين صديقتي، ومرآتي.. فقد تحطمت كل المرايا التي أملك، ولم أعُد قادرًا على رؤية نفسي.

(٥)

«أمل» و«جمال»

مستلقيان على الفراش ذاته، متباعدان إلى أقصى حد ممكن، وكأنهما يفسحان المكان لشيء ما بينهما، أو أكثر من شيء..

تنصت فلا تسمع بأذنيها سوى صمت الغرفة الثقيل. تنهض من الفراش وتسير بثقل مبتعدة عنه، حتى تخرج منها. لقد مر أكثر من شهر على الحادث، أكثر من شهر و«سليم» مستلقٍ في فراشه كالأموات، مهشم كطلل قديم. ماذا يمكن أن تفعل بعدُ؟ لقد استشارت الكثير من الأطباء وأخبرها الجميع بالإجابة ذاتها:

- أمهليه مزيدًا من الوقت ولا تقطعي الدعاء.

كم من الوقت ينبغي عليها أن تحتمل قبل أن يفيق؟ هي لم تعُد قادرة على احتمال المزيد، و«جمال» لا يحرك ساكنًا، وكأنه غير معني بالأمر. تنظر إلى وجهه العابس فتلمح في عينيه نظرةً لعينة تشبه التشفِّي، فتغض

منها الطرف وتواصل الصمت والدعاء.

ـ أين روحك الآن يا «سليم»؟

تتمتم وهي تواصل جرجرة نفسها إلى غرفته في آخر الرواق المظلم. تمرق إلى الغرفة. تحدق في جسده، فينتفض قلبها ويقشعر جلدها وتوشك على السقوط.

لقد فتح عينيه، ونزع عن معصميه أنابيب المحاليل، فانفجرت دماؤه ولطخت الملاءة والأغطية. ينظر إليها بفزع ويرتعش. يحرك شفتيه دون أن يتمكن من النطق، فترتمي عليه وتحتضنه بكل ما أوتيت من بؤس، وتظل على حالها، ويظل على حاله إلى أن يطلع الصباح.

لقد عاد أخيرًا من رحلته المظلمة. عاد محملًا بعبء لا يُحتمل، وبهمٍّ لا يُطاق. استغرق أكثر من ثلاثة أيام قبل أن ينطق كلمته الأولى، وأكثر من ستة أشهر قبل أن يخطو خطوته الأولى، كان في أثنائها يمطرها بحكاياته العجيبة عن العالم المخفي خلف الأشياء. عن الجسد المظلم الذي رأى من خلاله الكابوس المتنكر في شكل حياة. رسم كل ما رآه بإتقان شديد. تحسس وجهه فوجد العصابة مربوطة على عينيه، لكنه استمر في الرسم، تجاهلت «أمل» الرسوم أول الأمر. اعتقدت أنه مجرد تنفيس عن الحزن من شاب انطوائي لا يملك وسيله أخرى للتعبير، وبالتأكيد لن يكون رسمًا حقيقيًّا ذا معالم واضحة. هذا مستحيل؛ نظرًا لحالة عينيه، لكنها ما لبثت أن رأت أحدها صدفة. أنكرت، ثم اندهشت، ثم فزعت. بدأت تنصت لحكاياته التي كانت متيقنة من أنها مجرد هذاءات. ربطت الكلام بالرسوم، أكملت ذاكرتها الثغرات،

فتمثلت أمامها الصورة كاملة. صورة مبعوثة من بطن ماضٍ كريه.

- كيف يمكن لهذا أن يحدث؟

تساءلت في ذهول.

ذات يوم.. خرجت من غرفته منهكة كالعائدين من معركة. فتحت باب مكتب «جمال» الذي لا تفتحه أبدًا وهو فيه، ثم أغلقته خلفها. رأت وجهه كما توقعت تمامًا، ينضح بالدهشة والغضب؛ فتلك خلوته المحرَّم على الجميع اقتحامها مهما كانت الظروف. صاح بها أن تخرج، لكنها لم تفعل. تقدمت نحو مكتبه وجلست على الكرسي، ومن دون أن تنظر تجاهه راحت تقص عليه حكايات «سليم» الواحدة بعد الأخرى، إلى أن قاطعها بنفاد صبر:

- كفى هراءً، لماذا تخبرينني بخزعبلات ابنك المختل؟ أنا لم أعُد أحتمل العيش في هذا الخراء، اخرجي الآن ولا أريد أن أرى وجه أيٍّ منكما مرة أخرى؟

- لقد رآها يا «جمال».

- من؟

- «أشجان».

هاهو الاسم الحبيب يُقال ويُسمع من جديد بعد ما يقرب من العشرين عامًا من المنع والتحريم.

«أشجان»..

قالتها بحزن وسمعها بفزع. من ذا الذي يجرؤ على ذكرها أمامه؟ هل جُنَّت «أمل» لتفعل هذا؟ هل فقدت عقلها؟ تساءل قبل أن ينتفض من مقعده متوجهًا إليها، فلم تنظر إليه، وواصلت حديثها:

ـ أخبرني أنه رأى امرأة بفستان أزرق مبتل، تتشبث برقبتك، وتتقاطر من ثوبها المياه ومن عينيها الدموع. أخبرني أن فمها كان مفتوحًا كالمستغيث من الموت، وأنها تسير لصقا بك في كل مكان، وتنام بيننا في الفراش.

لم يكُن ما قالته «أمل» مجرد كلام، كان شيئًا كالانتحار، بنهاية محتومة ومعروفة مسبقًا. صفعها «جمال» بكل ما أوتي من قوة. ارتمت أرضًا وانفجرت من أنفها الدماء. ركلها وقذفها بكتب كانت على مكتبه، ثم عاود ركلها من جديد، حتى كفت عن كلامها المحرم، عن التجديف في حق ذاته المهترئة. استسلمت للألم والمهانة، فلا فرصة أمامها لمقاومة شيطانه الرجيم الذي استدعته توًا. وهو.. فقد صوابه تمامًا. ركض خارجًا من مكتبه واقتحم غرفة «سليم»، فوجده مستلقيًا على فراشه عاجزًا عن الحركة، وغائبًا في نوم عميق. صاح فيه أن يستيقظ، لكنه كان تحت تأثير العقاقير المسكنة والمنومة فلم يفعل. راح يعبث بعنف في أوراقه. يفحص الرسوم الواحدة بعد الأخرى، حتى وجد صورته مستلقيًا في الفراش، وبجواره.. «أشجان». من أين أتت تلك الدموع وقتها؟ لقد كفَّ عن البكاء منذ أعوام طوال. كيف عاد اليوم يبكي بحرقة الثكالى وبنهنهة الأطفال؟ خارت قواه فانهار على أقرب مقعد وانخرط في بكائه العنيف. «أشجان».. كيف عاد شبحها الآن؟ ولكن.. هل رحل عنه من قبل قط؟!

الآن تبعث كل الأيام الميتة. كل المشاهد تطفو حوله فيراها مرأى

العين. هو وهي في شرفة المنزل يتبادلان أطراف حديث يشع حماسة، عن ضرورة المشاركة في التظاهرات. هو أقنعها بأن تأتي برفقته. ترددت في بادئ الأمر، لكنه كان مدمنًا رفقتها فألحَّ عليها فوافقت. تواعدا عند بوابة الجامعة، حيث الحشود الغفيرة الغاضبة. وجدا كل منهما طريقه نحو الآخر على الرغم من الزحام. تحركا معًا يدًا بيد حتى وصلت المظاهرة إلى «كوبري عباس»، وحينما بدأ الصدام مع الأمن، طرقت فكرةٌ ما أبوابَ عقله بعنف.

ترى.. هل كان من الصواب أن يحضرها معه؟

وبعدها.. مر كل شيء بسرعة. رصاصات الأمن تنهال على المتظاهرين، والأرض تتفتح تحت أقدامهم. بدؤوا في الانزلاق، وفي التشبُّث بأجساد بعضهم البعض. الصراخ يدوي في الهواء، والفزع يعم الجميع، وكفها البضة الصغيرة تنزلق شيئًا فشيئًا من بين أصابعه، حتى أفلتها، وأبصرتها عيناه وهي تهوي مباشرة في جوف الماء المفتوح..

لكن يده الأخرى ظلت متشبثة بشيء ما بارد وصلب..

لماذا لم يفلتها ويُلحِق جسده بروحه التي رحلت توًّا؟

هذا هو السؤال الذي ظل يطعنه في كبده إلى يومه هذا.

* * *

مرت الأيام ببطء رهيب. واصل فيها «سليم» رحلة تعافيه المرهقة، من جلسات للعلاج الطبيعي وبعض العمليات الخفيفة لجبر كسوره وعلاج تقرحات الفراش التي أصيب بها في أثناء رقدته، حتى تمكن أخيرًا، بعد ستة أشهر، من الخطو لأول مرة بلا مساعدة من أحد ولا من جهاز أو عكاز. يسير بطيئًا خائفًا كالأطفال في مشيتهم الأولى.

وفي أثناء الشهور الستة، كان «جمال» يزداد تقوقعًا في غرفة مكتبه. يربض فيها بسكون. لا يجرؤ أحد على قطع خلوته، ولا يرغب أحدٌ في ذلك من الأصل. و«أمل».. نسيت أو تناست كل ما سمعته من «سليم»، وكل إساءة تلقتها من «جمال». سخَّرت نفسها بالكامل لخدمة ابنها، حتى يتمكَّن من تخطي محنته والعودة إلى حالته الطبيعية، أو عودة جسده بالأصح، أما عقله فقد فقدت الأمل في عودته إلى سابق عهده، فمنذ أن أفاق من الغيبوبة، وهو منخرط في خيالاته العجيبة، التي صدقتها فأفزعتها، ثم كرهتها فنسيتها، أو تناستها.

تسمعه في جوف الليل يناجي فتاةً ما. يحدثها ويسألها عمَّا تريد، وعن كيفية مساعدته إياها. يرسمها في أوراقه، تجلس بجوار الرجل المظلم بفم مفتوح عن آخره، وأشياء سوداء كثيرة تتفجر منه، أو تتفجر فيه.

لم يكف عن الحديث عن قطع الظلام التي تسيل من الناس، وتظل تراقبهم من على الأسقف والجدران، وعن الرجل المظلم الذي يرافقه في كل مكان، حتى صار المنزل كبيت الأشباح بالنسبة لـ«أمل»، لا تطيق صبرًا حتى تغادره لتشتري بعضًا من حاجيات المنزل، فتشعر أنها خرجت مؤقتًا من كابوس مقيت، لن يمر وقت طويل حتى تعاود الانخراط فيه من جديد رغمًا عنها.

مرَّ من الوقت عام.. وفي صباح فارق في حياة الجميع.. دخلت «أمل» غرفة «سليم» كما تفعل كل يوم، فلم تجده.

فتَّشت كل ركن بالمنزل فلم تعثر له على أثر، حتى أيقنت أنه رحل..

لماذا؟

(٦)

«سليم»

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. أظن أن الوقت قد حان الآن. هناك مهمة ما تنتظرني خارج جدران هذا المنزل. يستحيل أن يكون كل ما رأيته عبثًا، هناك سبب ما كامن خلف هذا كله، ربما الفتاة، وربما شيء آخر لم أعرفه بعد، ولا سبيل لي لمعرفته إلا بالرحيل عن هنا.

قمتُ بتحضير كل شيء. لن أحتاج سوى إلى تلك الحقيبة الصغيرة، القليل من الملابس والكثير من الأوراق والأقلام، ووجبة خفيفة، إلى جانب كل المال الذي ادخرته طول حياتي، ليس بالكثير لكني لا أملك سواه. أُخرج ورقة بيضاء وأحاول من جديد كتابة رسالة لأمي بدلًا من كل الرسائل التي كتبتها ومزقتها، فلا يجوز أن يمر الأمر بلا رسالة، لكن ما يعتمل في صدري لا يمكن أن تصوغه كلمات، فماذا أكتب؟

- «فقط لو تعلمين كم ورقة مزقت قبل أن أكتب لكِ تلك الرسالة.

لقد حكيت لكِ عن كل شيء، ثم تخلصت من كل ما حكيت إلا بعضه القليل.

أمي..

نحن لا نلد الأطفال فقط في أثناء وجودنا على هذه الأرض. نحن نلد الملايين والملايين من الكائنات، ربما لا نكون مدركين وجودها تمامًا، لكن عدم إدراكنا هذا لا يعني أنها غير موجودة. نحن نلد في كل لحظة.. الكلمات والأفكار، الدموع والابتسامات، الوجع والأذى، وكلها كائنات مكتملة تبقى في حياة طويلة، تمتد حتى بعد أن نرحل نحن. كل منهم يبحث عن قطيع، يتزاوج ويتكاثر، يتعلّم وينمو، يتفشى ويغزو. الدموع تبحث عن الدموع، والألم يبحث عن الألم، والشر يبحث عن الشر. أما نحن فنتوه وسط القطعان الكثيرة التي تجثم على صدورنا، وتقتلنا قتلًا بطيئًا، ونحن عِميان عن السبب. السبب هو أولادنا المشوهون الذين أنتجناهم على مدار حياتنا، وظلوا يتكاثرون حولنا بلا كلل، ويتغذون على أرواحنا بلا رحمة. ويستولدون منَّا المزيد من سلالاتهم السامة. إنهم يشعرون بوجود بعضهم البعض، يتجمعون حول بعضهم كما تتجمع برادة الحديد حول قطعة مغناطيس. لديهم ما يكفي من الذكاء ليحددوا أهدافهم بدقة. لديهم ما يكفي من المكر ليتقنوا التخفي فلا نتمكَّن من رؤيتهم. لديهم ما يكفي من المقاومة، ما يُمكّنهم من البقاء، والتسرب من جيل لآخر بثبات وإصرار، ولدينا ما يكفي من الجهل والتغافل لنكون رحمًا خصبة لاستيلاد هذا الشر كله، وإمراض العالم به.

لو فقط يرى الناس ما يلدون في كل يوم مرأى العين كما رأيته أنا،

لهالهم شكل الفراغ حولهم.. لو تمكنوا من رؤية هؤلاء المتربصين في الفراغ.. لو تمكنوا من رؤية تلك الأشياء في لحظة ولادتها وهي تخرج مسرعة من فم أحدهم أو تنسل من كف آخر.. لو تأكدوا أن كل كلمة تقال وكل فعل يطلق سراحه وكل فكرة تكافح للظهور حتى وإن كانت صغيرة، لا تذهب هباءً.. لو تأكدوا أننا نعيش داخل نظام مغلق لا يُهدَر فيه شيء.. لو فقط أبصروا تلك السلالات التي تتكاثر حولهم في كل لحظة، والتي يمتد وجودها من عصور سحيقة، وستبقى لعصور أخرى.. لو فقط تمكنوا من النظر في أعين الموتى الملتصقين بجلودهم، يشاركونهم الفراش والتجوال والمجالس، يشاركونهم في عقولهم وقلوبهم وأرواحهم. لو فقط يبصرون كل هذا.. فسيشفقون على العالم وعلى أنفسهم من أنفسهم.

أمي.. لو تعلمين كم كان صعبًا عليَّ فراقك، وكم يشق على نفسي تركك وحدك في منزلنا الممتلئ بالظلام الحي، وبالأموات.. لكن هناك شخصًا ما يحتاج إليَّ في مكان لا أعرفه. هناك فتاة تقف على حافة الحياة وتستغيث بي بضراعة، وأنا لم أعُد أملك سوى أن أتلمَّس طريقي نحوها، حتى إن كنت لا أراه.. لا عليك من هذا كله، فقط تذكَّري أني أحبك أكثر من أي شيء آخر».

أضع القلم جانبًا ثم أحدِّق في الرسالة.. لا، ليس هذا ما ينبغي أن يقال الآن. أطوي الورقة وأضعها في جيبي، ثم أسحب أخرى وأكتب عليها بخط كبير:

- أمي الحبيبة.. سامحيني.

أتركها على الطاولة وأمضي. أتسلل برويَّة حتى لا يسمعني أحد، لأتمكَّن في النهاية من الوصول بأمان إلى بوابة البناية. الطُّرقات ساكنة تمامًا، توشك أن تستقبل نفحات الفجر الأولى، تلك التي تسبقه كعطر يُنبئ بمقدم صاحبه قبل وصوله. كم أفتقد هذا السكون، هذا الهواء النقي الخالي من عوادم البشر. أتذكَّر وقتًا مشابهًا، كنت أقف فيه على حافة النافذة وأتيه في الفراغ أمامي. أتذكَّر حينما انزلقت وأبصرت كل ما حولي بعينين مغلقتين. ترى.. كيف انتهيت إلى هنا هاربًا من منزلي، هائمًا في الطرقات المجهولة؟ من أين حصلت على تلك الجرأة التي لم أتحلَّ بها من قبلُ قطّ؟ لم أكُن يومًا مصدر قراري ولا صاحب الكلمة الأخيرة في أمري. كان عمي «جمال» يسيطر على حياتي وكأنني لعبته الخاصة، التي يلهو بها ويستعملها ويعذِّبها إن لزم الأمر. هو يقرر ماذا أرتدي وماذا آكل وماذا أدرس، متى أستذكر دروسي وكيف. يقطع علاقاتي بأصدقائي الواحد بعد الآخر، حتى صرت وحيدًا تمامًا بلا رفيق. يظل يتفرَّس في وجهينا، أنا وأمي، في أثناء أحاديثنا القصيرة، فيجهض أي حوار قبل أن يبدأ. هو قرر أن أدرس الحقوق، ربما لأنه فشل فيها ولم يحصل على شهادة تخرجه، فقرر أن يحصل على شهادة تخرجي عوضًا عنها. لا أدري.. لا أدري سوى أنني لطالما شعرت بالعجز تجاه كل شيء.. لكن الآن، الأمر مختلف تمامًا. أنا مؤمن بما رأيت وبما أستطيع فعله. أمي تعتقد أني فقدت عقلي، لكني على يقين بأني لم أملك يومًا زمام عقلي كما أفعل الآن، الآن أنا حر تمامًا كما لم أكُن من قبل.

أطلقت العنان لقدميَّ على الطريق. سلكتُ شارعًا بعد آخر حتى تلقفتني الطرق وأسلمتني لأخرى لم أرَها من قبل، ولا أعرف عنها

شيئًا. واصلت المسير حتى بدأت السماء في التزيُّن بزرقة الصباح البكر المطعمة بحمرة الشمس الوليدة. وبدأ بعض الباعة في الظهور. يفرشون أشياءهم ويتجولون محملين باللبن والفول وخلافه من متطلبات الصباح المعتادة. بدأت ألاحظهم وألاحظ تفاصيل الشوارع. أدركت كم أننا معزولون في منزلنا عن العالم بأكمله. عمي «جمال» لا يعمل، يكتفي بالأموال الطائلة والعقارات والمحال التي تركها له جدي، وبالتالي نادرًا ما يغادر المنزل.. وأمي كذلك، لا تخرج إلا لشراء حاجيات المنزل، ولا يزورها أحد فيه. لا أصدقاء ولا أقارب صاروا يطيقون رفقتنا، حتى الراديو ممنوع في المنزل. كانت الجامعة هي متنفسي الوحيد، على الرغم ممَّا لاقيته فيها من نبذ وفتور من الجميع، إلا أني على الأقل كنت أعرف ما يدور في عالم الأحياء.. أما الآن، بعد العام الذي قضيته منفيًّا في المنزل، والشهور السابقة للحادث التي قضيتها سجينًا في غرفتي، فلم أعُد أعرف عن العالم شيئًا، ولم أعُد أشعر سوى أنه مكان مخيف، مغطى بالظلام الذي يتقيَّؤه الناس على بعضهم البعض، حتى إني لا أعرف لماذا عُلقت تلك اللافتات كلهافي الشوارع!

- يا أهلًا بالمعارك.

- سنرمي إسرائيل في البحر.

- لن نقبل المساومة مع الصهاينة.

- سندوس جنودهم بأقدامنا.

- كلنا وراءك يا «ناصر».

تُرى.. عن أي معارك يتحدثون؟

لا أدري..

أواصل المسير، حتى يصيبني الوهن. أتوجه إلى أقرب بقعة ظل والقي بجسدي فوقها، فأذوب في نوم كامل الإظلام.

(٧)

«حسين»

هي.. جميلة كالخريف، ذكية كالموت، حزينة وبهية كزنبقة على طرف لحد. هي.. تلك الواقفة على عتبة الموت بجسارة ورضا. أحدق فيها بدهشة، وتحدق في بنصف ابتسامة ونصف تقطيبة. يذهلني ثباتها. قبولها للموت وتعلقها بتفاصيل الحياة الصغيرة، نقيضان لا يمكن جمعهما في نَفْسٍ واحدة. لكنها ألفت بين الضدَّين بحكمة ورفق، فصارا كيانًا واحدًا، مدهشًا وملهمًا. تلك الصغيرة الكبيرة التي أمسكت بيدي على حافة الهاوية. كم كنت محتاجًا إلى ذلك الوتد ليثبتني على أرض الواقع، ليذكِّرني كل يوم بما ينبغي عليَّ أن أكونه، ليمنحني سببًا للبقاء أواجه به أسباب الرحيل الكثيرة، وقد كانت تلك الطفلة القابعة في الغرفة المجاورة هذا السبب.

أطرق باب غرفتها لأحثَّها على الإسراع في ارتداء ملابسها لنبدأ

طوافنا في شوارع القاهرة. هناك الكثير لتراه قبل... قبل أن يكبِّلها المرض في الفراش. كل يوم نفر من المنزل، حتى إننا نتناول ما تيسَّر من وجباتنا في أثناء المسير. تحاول أن تساير طاقتي المتقدة بما تملك من قوة شحيحة، لتتمكَّن من رؤية أكبر قدر ممكن من الأماكن والأشياء. قمتُ ببيع ساعتي الذهبية واشتريت بثمنها كرسيًا متحركًا لتواصل به التجوال حينما يخذلها جسدها ويعوقها عن المواصلة، مواصلة التحليق بعيدًا عن التابوت. نستريح على الأرصفة ونقرأ الكتب. الآن نحن في منتصف رواية «دون كيشوت». ننصت معًا إلى هرائه الجميل، ثم نغلق الكتاب ونستكمل هراءنا الأكثر جمالًا. وفي مؤخرة الكرسي المتحرك، أضع الكمان، وأخرجه من حين لآخر لأصنع به خلفية موسيقية لرحلتنا العجيبة.

غريب أن حياتنا تخلو من الخلفيات الموسيقية. كان لا بُدَّ أن تُعزف الموسيقى خلف كل عناق وكل قبلة وكل نظرة محبة. خلف كل دمعة وكل ابتسامة وكل إطراقة. أمر محزن أن يكون فيلم حياتنا صامتًا، لكنني أكسر هذا الصمت بكماني، وأضفي عليه ما ينقصه من سحر.

أطرق الباب مجددًا، فتخرج منه الصغيرة بفستانها الأخضر القصير، وجسدها المجهد شديد النحول، بوجهها الشاحب ورأسها الخالي والهالات السوداء التي تصبغ تجاويف عينيها، لكن وسط هذا كله، تشع نظرة مملوءة بالحياة، وابتسامة!

يبدأ يوم آخر من أيامنا معًا، وسط بدايات أخرى محتملة. حرب ما، انتصار ما.. الله أعلم. المظاهرات تملأ الشوارع تؤيد «عبد الناصر» في حربه ضد الصهاينة. اللافتات معلقة في كل مكان، والشباب يتوافدون

على معسكرات التدريب للتجهُّز لهذا الشيء الذي لم تتضح معالمه بعدُ. وأنا أكتفي بالدعاء والانتظار والمشاهدة.

كل شيء جاهز الآن: الكرسي والكمان، شطائر الجبن والبيض، أنا وهي وحلم صغير وكتاب. أدعوها إلى الجلوس على الكرسي فترفض بابتسامة رقيقة وهزة رأس. تخبرني أن بها قدرًا من قوة يمكِّنها من السير قليلًا، فأتركها وقوتها وأدفع الكرسي خارجًا من الباب. من الجيد أن الشقة في الطابق الأرضي، حتى لا تكون هناك صعوبة أمامها هي وقوتها وكرسيها في الخروج والعودة، وعلى الرغم من هذا أتعثر بشيء ما بالقرب من بوابة المبنى.. هل هو جسد؟ تساءلتُ.

ليس غريبًا أن تعثر على أحد المتسولين نائمًا على رصيف في حينا أو أي من أحياء مدينتنا، لكنه لا يبدو متسولًا. ملابسه وحذاؤه وحقيبته وساعة يده، كلها مقتنيات أنيقة وغالية الثمن. لم أُبدِ تلك الملاحظات بصوت مسموع، وعلى الرغم من ذلك، لاحظت «ندى» ما لاحظته أنا على الفور، فقد كانت في وضع مماثل منذ فترة ليست بالبعيدة. طرأت الدهشة على رأسينا معًا، وكأن طريقي صار محفوفًا بالنائمين على الأرصفة بملابسهم المرتبة، لكن كل شيء يحدث لسببٍ ما، ما زلتُ أؤمن بهذا.

لكزت الفتى في كتفه مرات عدَّة فلم يستجِب، تحسستُ معصمه فاطمأننت إلى أنه على قيد الحياة، فعدت ألكزه من جديد ولم يستجِب. دسست كفي في جيبه بحثًا عن بطاقة هوية، فوجدت بالفعل بطاقة وورقة مغضنة. من البطاقة عرفت أن اسمه «سليم مراد الحسيني»، ومن الورقة عرفت أمورًا أخرى أثارت اهتمامي. كانت رسالة وداع

لأمه، لكن لسببٍ ما ما زالت معه هو، إلا أن الغرابة لم تكُن هنا، بل كانت في الكلمات العجيبة التي كتبها.

ـ هذا عالم آخر غير الذي نعيش فيه، أم أننا نعيش في عالم لا نراه؟

تساءلتُ.

فتحت حقيبته الصغيرة فوجدتها مكتظة بالأوراق، بعضها فارغ وبعضها يحمل رسومًا متقنة وكئيبة. أناس عراة ينزفون من مواضع مختلفة من أجسادهم. نزيف أسود يقطر من رؤوسهم ويتفجَّر من أفواههم. وآخرون تلتصق بهم أجساد أخرى مرتخية ومفزعة تشبه الجثث، وفي الرسوم كلها يقف في الخلفية جسد عملاق أسود تمامًا بلا ملامح وكأنه مغطى بالكامل بحجاب مظلم.. ما هذا؟

اقتربت «ندى» منه بهدوء وجلست أرضًا بجواره.

ـ «سليم».

نادته وهي تمسِّد بيدها الهواء المحيط برأسه من دون أن تلمسه، لكنه كان نائمًا بعمق ولم يسمعها. جلستُ بجوارهما على الرصيف. كان المارة يرمقوننا باستنكار، فلم نكترث لهم كما عوَّدنا أنفسنا. حاولتُ إيقاظه من جديد، ففتح عينيه أخيرًا. فوجئت من شكلهما من دون أن أظهر الدهشة على ملامحي. ابتسمت «ندى»، وبادرته أنا بالتحية:

ـ مرحبًا بك يا صغير.

(٨)

«سليم»

ـ مرحبًا بك يا صغير.

قالها شخص ما فور أن استيقظت من نومي العميق على رصيف. لم أدرك للوهلة الأولى أين أنا، ومن يمكن أن يكون هذا الشخص ورفيقته الصغيرة. كان شابًّا في أواخر العشرينات، بشعر بني وعينين خضراوين ضيقتين، تزدادان ضيقًا بفعل ابتسامة ودود ينكمش إثرها محيط عينيه، وبجواره فتاة صغيرة صلعاء، ذات وجه شديد الشحوب وجسد نحيل لدرجة لافتة للنظر. نظراتهما تنضح اهتمامًا وترقُّبًا، على الرغم من أنهما مجرد غريبين على طريق. هذا ما أدركته حينما استعدتُ قدرتي على التفكير، فتعجبتُ له، وبادلتهما الترقُّب بترقُّب، إلى أن رأيت أوراقي وحقيبتي المفتوحة بين يدي الشاب، فاستشطت غضبًا. كيف يتجرأ أحدهم على فتح حقيبتي والعبث بأشيائي؟ لكني اكتفيت بالصمت

والانقضاض على الأوراق ولملمتها. امتزج الترقُّب مع الغضب شيئًا فشيئًا واحتالا شعورًا آخر، ربما كان خوفًا.

تذكرتُ في تلك اللحظة، الشهور الطويلة التي قضيتها وحيدًا بين جدران منزلي. تذكرتُ أني نسيت كيف هم الناس، وأبسط ما ينبغي على المرء فعله للتعامل معهم. ها هو غريب ما يعبث بحاجياتي التي هي قطعٌ كاملة من روحي، وأنا أحدق فيه بفزع ولا أدري ماذا يمكنني أن أفعل. كفاي ترتعشان من البرودة، ورأسي يغلي من الغضب، لكن لساني معقود عن الصياح في ذلك الوجه المبتسم أمامي بلا مبرر واضح.

ـ مرحبًا يا صغير.. صح النوم.

ـ لستُ صغيرًا.

تملصت الكلمة من بين شفتيَّ بصعوبة وأنا أسحب أوراقي من يده وأحاول النهوض. تعثرت وكدت أسقط، فأمسك كتفي بقوة وأقامني واقفًا أمامه مباشرة، ثم التقط الحقيبة الملقاة أرضًا ووضعها على كتفي. عدل من ياقة قميصي، ونفض التراب عن صدري، ثم سألني:

ـ ستة عشر؟

حدقت فيه بعدم فهم، فعاد وسألني من جديد:

ـ ستة عشر عامًا؟ عمرك يا صغير.. كم عمرك؟

أردت أن أصيح في وجهه: «وكم عمرك أنت لتنعتني بالصغير؟»، لكنني لم أستطع:

ـ تسعة عشر عامًا.

مطَّ شفتيه وراح يعبث بذقنه النابت ثم قال باهتمام:

ـ حسنًا يا «سليم».. أنا أعلم اسمك بالطبع لأني فتشت أشياءك، وقد فعلت هذا ببساطة لأني كنت أشك أنك ميت على عتبة منزلي، فاضطررت للبحث عن هويتك وعن سبب ما لاستلقائك هنا. أعتذر إن كان هذا قد أغضبك. أنا اسمي «حسين»، أبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا وثلاثة أشهر ويومًا. أحب العزف على الكمان وقراءة الكتب والقيام بأشياء كثيرة يراها الجميع حمقاء وغريبة، وتلك الصغيرة هي صديقتي «ندى»، وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو غريبًا، فإننا نسكن معًا في هذا المنزل. نحن قرأنا رسالتك ورأينا رسومك، وصدِّق أو لا تصدق، لقد أثرتَ فضولي لدرجة تجعلني مُصرًّا على دعوتك إلى الغداء في منزلي أو في أي مكان تختاره. لقد كنا على وشك الخروج على أي حال، أنا و«ندى» وكتاب «دون كيشوت» والكمان خاصتي. نحن الأربعة لدينا مهمة خاصة وجليلة، هي استكشاف القاهرة في أقصر فترة ممكنة، لأسباب قد أخبرك بها إن قبلت دعوتي...

هل انتهى؟ لم أعرف.

لقد صمت واستمر في التحديق بوجهي هو والفتاة، ثم نظر لأعلى وأطرق طويلًا نحو السماء:

ـ نحن نحتاج إلى سيارة.

حدجته الصغيرة بنظرة عدم فهم وسألته:

ـ ومن أين لك بسيارةٍ أيها الثري؟

- سأفكر في الأمر.. أما الآن فيمكننا أن نستأجر قاربًا ونقيم فيه حديثًا شائقًا مع ضيفنا الجديد.. هيا بنا حتى لا نتأخر.

قالها ومضى في طريقه دون أن ينظر خلفه، دافعًا أمامه كرسيًّا متحركًا. وفي أثره مشت الفتاة وهي تتلفَّت نحوي وتشير لي بيدها لأتبعهما. لم أعرف ما عليَّ فعله. أنا لم أحب يومًا الغرباء، لكنه ولسبب ما..

لا يبدو غريبًا!

سرنا طريقًا طويلًا لا أعرفه. كنا أنا والفتاة صامتَين، في حين لم يكف هو عن الحديث للحظة. يصف لنا الطرقات والمحال. يحكي عن تاريخ الشوارع والمساجد والبيوت القديمة، عن قصص الباعة الجائلين والعجائز المطلين من النوافذ. كيف عرف هذه الأمور كلها؟ تساءلتُ.. ورثيت نفسي وعقلي الذي لا يحمل بداخله سوى الكثير من الوحدة والخيالات والأفكار العجيبة عن العالم وساكنيه، لكن هل أعرف ساكنيه من الأساس؟ متى كانت آخر مرة دار فيها حديث طويل بيني وبين أحدهم؟ متى كانت آخر مرة تمشيت بحرية في طريق وتعرَّفت إلى معالمه؟ ربما تكون إجابة تلك التساؤلات كلها هي: «أبدًا».

وعلى الرغم من هذا، فأنا واثق ممَّا رأيت خلف هذا العالم.

لقد رأيت ما هو خلف العالم وأنا بعدُ لم أرَ العالم نفسه!

كنت كلما نظرت إلى الفتاة لاحظت مدى الإعياء الذي كانت فيه، ومدى ازدياده خطوة بعد خطوة، و«حسين» كان يلاحظ هذا كل حين فيربت على رأسها ويسألها أن تجلس على الكرسي المتحرك، فترفض

وتكمل طريقها بصعوبة بالغة، إلى أن وصلنا أخيرًا إلى أحد المراسي. هبطنا درجًا مكسرًا نحو الأسفل. كان مشتلًا كبيرًا ومرسى في الوقت ذاته. تعثرت «ندى» عن السلالم، فأسرع نحوها وحملها بين ذراعيه وكأنها رضيعته. تحدَّث مع الرجل صاحب القارب واتفق معه على الرحلة. كان واضحًا كيف أن الرجل يرمقنا باستغراب يقرب إلى الاستنكار. يقلِّب نظره بين «حسين» و«ندى» بعدم فهم وتردد، إلى أن خرجت الجنيهات من جيب «حسين» فأسرعت كفه بالتقاطها دون إذن من عقله المستنكر. سحب الحبل الذي ربط به القارب حتى التصق بالشاطئ ثم ثبته. قفز إليه «حسين» حاملًا الفتاة، ووضعها أرضًا. نظر تجاهي فلم أتحرك، فأشار لي بيده أن تعالَ.. وأنا لا أعرف ما كنت أفكر فيه فعلًا. سألته عن الكرسي، فأخبرني أنه سيتركه للرجل في أثناء الرحلة التي لن تستغرق أكثر من ساعة، وأخبرني كذلك أن أحضر منه الحقيبة والكمان لأننا سنحتاج إليهما في رحلتنا القصيرة.

وجدت نفسي، من دون سبب واضح على متن القارب مع هذين الغريبين. شققنا طريقنا جنوبًا مدفوعين بقوة ذراعيه. جسده عضلي وقوي ورشيق بعكس جسدي الذي صار كعلبة من الصفيح الملصوق بالغراء، هل أحسده الآن على قوته ومعارفه؟

تبًّا له.. أو لي!

- كيف تشعرين يا «ندى»؟

قالها وهو مستمر في التجديف، والانتقال بنظره بيني وبين الفتاة. شيء ما في عينيه لا أذكر أني رأيته من قبلُ. عيناه الضيقتان تجيدان النظر

بطريقة مذهلة. لا أذكر آخر مرة نظر أحدهم فيها إليَّ بتلك الطريقة، وكأنه يبصرني حقًّا.

ـ جسدي ليس بخير، لكني مرتاحة. أنا أحب الماء، هل أخبرتك بهذا من قبل؟ أذكر عندما كانت أمي تحملني فوق ظهرها في البحر وتحكي لي الحكايات.

ـ وأين أمك الآن؟

قلتُ دون تفكير.

ـ ماتت.. أمي ماتت.

كم أنا أحمق.. فكرتُ، وقاطع فكرتي «حسين»:

ـ لماذا لا تُرينه دفترك؟

ـ لا.

ـ هيا يا صغيرتي، أريه الدفتر، إنه جميل.

فكَّرَتْ قليلًا ثم مدت يدها في حقيبة صغيرة كانت متشبثة بها طول الوقت، وأخرجت منها مفكرة متوسطة الحجم بغلاف مزركش غريب، يبدو وكأنه مصنوع من القماش. أمسكت بها بتردد وخجل ظاهر، ثم ناولتني إياها.

ـ لقد كانت والدة «ندى» حكَّاءة استثنائية، تؤلِّف القصص بلا انقطاع، وترويها في كل مناسبة ممكنة، وعندما توفيت حاولت «ندى» تذكُّر قصصها، وكلما تذكرت حكاية، كتبتها في هذا الدفتر.

فتحتُه فوجدتُ صفحات كثيرة مكتوبة بخط رديء. لم أقرأ القصص كاملة، لكن عينيَّ وقعتا على الكثير من الأميرات والجنيات والملائكة، غابات ووديان مسحورة، وأنهار من عصير الفراولة والشوكولا. كتب تطير في الهواء وقصور مبنية من المياه الفضية.

- جميل.

قلتُ وكنت أقصد فعلًا ما أقول. تحسستُ الغلاف وحاولت تبيُّن ماهيته، فبادرتني:

- عندما سلَّمونا في المستشفى الرداء الذي كانت أمي تلبسه عندما تُوفيت، خبأته قبل أن يلقوا به في القمامة، واحتفظتُ به.. وبعدها، عندما بدأت الكتابة في هذا الدفتر، قصصتُ الرداء وصنعت منه غلافًا له.

أنهت كلامها ثم صمتت، وانحدرت من عينها التي تشبه اللوزة دمعة آلمتني، ربما بقدر ما آلمتها. لقد تمكنَتْ تلك الطفلة من كسر الحاجز بيننا. كيف يمكن للناس أن يحكوا عن آلامهم للغرباء بتلك البساطة، بل ويسمحوا لأنفسهم بالبكاء أيضًا؟ هل هم غرباء الأطوار، أم أنا الغريب؟

أدركتُ في تلك اللحظة، أنني لا أملك مرجعًا أعود إليه لأحكم على أيٍّ منا بالغرابة أو بالطبيعية، وهذا في حد ذاته يجعل مني غريبًا لا محالة. كنت في حاجة إلى بعض الصمت حتى أستجمع أفكاري، لكنْ واضح أن الصمت و«حسين» لا يجتمعان.

راح يسألني كثيرًا من الأسئلة. أتلعثم في الكلام فيقاطعني بسؤال جديد وحكاية، فأشعر بالارتياح لأنه أعفاني من الإجابة. ما زالت

القشعريرة تسري في مؤخرة رأسي، وما زالت أطرافي باردة كالثلج، لكن قلبي صار أقل ارتجافًا.

ـ حدِّثني عن رسومك يا «سليم».

ـ لا.. لن أستطيع.

فكرتُ، ولأول مرة تمنيت لو كنت قادرًا على الحكي، لكنني لست مثلها. صمتُّ ورحتُ أتأمل السماء التي خلعت من عليها نورها وبدأت في الإظلام شيئًا فشيئًا:

ـ ألم نقُل لصاحب الـ... القارب إننا سـ... سنغيب ساعة فـ... فقط؟

ـ لا عليك، دع هذه الأمور لي، أنا أدرى بها، هيا يا صغير حدثني عن رسومك.

ـ أنا لستُ.. صغيرًا.

ـ أنت أصغر مني بعشرة أعوام، وهذا يعطيني الحق في أن تكون صغيري.

ـ حقًّا؟.

قلتُ بسخرية ثم صمتُّ من جديد.

ـ لقد أعجبتني الرسوم وأثارت مخيلتي، خصوصًا بعد أن قرأت الرسالة. سامحني لم أكُن أقصد التطفل عليك، لكن أول كلمة أسلمتني للثانية، وهكذا إلى أن انتهيت منها. أنت تجيد الكتابة حقًّا، لكن أظن أن الأمر أكبر من مجرد كلمات مكتوبة ببراعة. أحسست لوهلة أنك تتكلم عن أشياء حقيقية. هل ترى حقًّا؟ آسف.. أقصد هل رأيت بعينيك

شيئًا من هذا، أم أنها مجرد أفكار في عقلك؟

ـ ولماذا تظن أني... أني سأخبرك بما رأيت؟ أنا... أنا لا أعرفك.

ـ ألم تتعرَّف إليَّ بما فيه الكفاية في الساعات الماضية؟

ـ أنت... أنت لم تكف عن التحدث عن... عن كل شيء، لكنك لم تتكلم عن... عن نفسك، لماذا إذًا تتوقَّع مني أن... أن أحدثك عن نفسي؟

ـ ألم تستشف أي صفة من صفاتي؟

لا أعرف من أين حصلت على هذا القدر من الشجاعة، ولا أتذكر متى كانت آخر مرة تبادلت فيها أطراف حديث كهذا مع أيِّ شخص كان، وما لفت نظري أنني لم أشعر بالرجفة حينما رددت على سؤاله:

ـ أشعر أنك تعرف كل شيء عن كل شيء.. إلى جانب أنك.. أنك حنون.. و.. ومغرور.

لم يبتسم كما يفعل دومًا. حدجني بنظرة ثابتة، ثم أطرق نحو السماء قليلًا:

ـ حقًّا؟ هل أنا مغرور؟ ربما.. لكني لا أظن ذلك، أتعلم لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأنني حقير.

اعتدلت «ندى» في جلستها وقالت باهتمام:

ـ أنت لست حقيرًا يا «حسين»، لا تقُل هذا.

ـ حسنًا، دعوني أحكِ لكما حكاية جديدة..

قبل أن أغادر منزل أسرتي، وقبل أن أتغيَّر وأصبح هذا الشخص غريب الأطوار الذي تريانه الآن، كنت أعيش في منزلنا الكبير مع أخواتي الثلاثة. اثنتان منهن تكبرانني في العمر، والثالثة هي «فريدة».. التي أهداها الله لنا على غير موعد بعد أن صرنا شبابًا، وقاربت أمي على الكهولة. كان حملها مفاجأة للجميع، وأتت إلى العالم محفوفة بالحب والدهشة. كنت أحبها، أقسم إني كنت أحبها من صميم قلبي، وعلى الرغم من هذا...

ـ ماذا؟ أكمل!

ـ ذات مساء، كانت أمي متعبة من أعمال المنزل ومن السهر طول الليل، ولم يكُن هناك غيرنا في البيت. ترجَّتني أن أحمل الصغيرة بعضًا من الوقت، وأن أرضعها من قنينة الحليب خاصتها، لتذهب هي وتنام نصف ساعة قبل عودة أبي من العمل؛ لأنها لم تنَم لأكثر من يومين. تركَتْها بين ذراعيَّ وصعدت إلى غرفتها في الطابق الأعلى، وعلى الرغم من هيامي بها، لم ألتفت في تلك اللحظة لوجنتها الناعمة وللشامة الحمراء الصغيرة التي تشبه التفاحة على كفها اليسرى. لم أتأمل عينيها اللامعتين الكبيرتين، ولم أتحسس رأسها الصغير الأصغر من كف يدي. لم أرَ ملابسها البيضاء المزركشة بورود ودبية خضراء. لم أسمع مناغاتها والأصوات الطريفة التي يصدرها فمها المبلل بريقها العذب. لم أرَ أمامي سوى كتاب كنت أود قراءة ما تبقَّى منه، وكوب من الشاي أوشك أن يبرد. ولأنني لم أُرِد إغضاب أمي إذا عرفت أنني لم أرضع الصغيرة، سكبت قنينة الحليب في الحوض، ووضعت «فريدة» في فراشها.. على بطنها..

صدقني، لم أكُن أعرف وقتها أن الأطفال يمكن أن يموتوا اختناقًا

إذا ناموا على بطونهم.. بكت كثيرًا وتجاهلتُ بكاءها، إلى أن نامت بوجه مبتل من الدموع، ومعدة فارغة من الطعام. وحينما استيقظت أمي، لاحظت زرقة وجهها التي لم ألحظها أنا لفرط انشغالي بما أقرؤه، وحينها اكتشفنا أنها ماتت اختناقًا.

ولم يعلم أحدٌ أنها ماتت جائعة.. إلا أنا.

صمت قليلًا وأطرق نحو الظلام الذي احتل السماء تمامًا. تساقطت من عينيه الدموع على استحياء، ثم أردف:

ـ لكن ليس هذا فقط ما يجعل مني حقيرًا. الأدهى أنني لم أذرف عليها دمعة واحدة. أقسم إنني أحببتها أكثر من أي شخص في العالم، لكن شيئًا ما حال بيني وبين الحزن. تشتَّتَتْ أفكاري وتشظَّت إلى ألف قطعة. كل قطعة في مكان مختلف. صرت أوصل الليل بالنهار، وأقرأ مئات الصفحات من كتب وصحف متفرقة. أجوب الشوارع وأتجاذب الأحاديث مع الغرباء، وأعرف حكاياتهم وأخبارهم. أتسلق الأشجار والمباني القديمة، وأسبح في النيل إلى أن تنقطع أنفاسي. أعزف على كماني حتى تتشنج عضلاتي ويصرخ أهلي والجيران من الانزعاج والغضب. صرفت كل ما أملك من أموال على أشياء تافهة، وبدأت في بيع ممتلكاتي. وفي النهاية ملَّ أبي ممَّا أفعل، وطردني من المنزل. أظن أنه يكرهني الآن، على الرغم من أنه لم يعرف شيئًا عن جريمتي، لا أحد يعرف، لا أحد يعرف كم أنا قبيح...

ربتت «ندى» على كتفه ولم تنبس، وأنا.. بحثت عمَّا أقوله ولم أجد، أما «حسين» فلأول مرة منذ أن قابلته أجده صامتًا تمامًا، مطرقًا نحو

اللاشيء، ثم فجأة، وبعد لحظات ثقيلة من السكوت، هب واقفًا وخلع عنه قميصه، ثم قفز في المياه. صرختُ وصرخَتْ «ندى» وانحنينا نحو الماء لنرى شيئًا منه، فما لبث أن ظهر، وراح ينفض عن رأسه المياه وعن عينيه الدموع.

كان الظلام يحفُّنا من كل الجهات، والمياه سوداء تمامًا. كيف له ألَّا يخاف من هذا الظلام كله؟ ترجَّته «ندى» أن يصعد على متن القارب، فضحك وراح يسبح مبتعدًا عنه، يغوص ويطفو ثم يغوص من جديد، وأنا أتأمله بدهشة من دون أن أنطق. وبعد برهة، تسلق القارب وجلس جلسته الأولى، ثم ضحك وهو يرتجف ويقول:

ـ حسنًا،ماذا كنا نقول؟

حدجناه باستغراب، فأردف:

ـ كنت أسألك عن رسومك ولم تُجِبْني، حقًّا أود أن أعرف أكثر.

تلعثمتُ:

ـ لا شيء.. فقط.. أنا أحب أن أرسم ما أراه.. وقد رأيت أشياء.. وفتاة...

نطقت بالكلمات ثم تمنيت لو أنني لم أتفوه بشيء منها، ما هذا الهراء الذي أقول؟ ولحسن الحظ قاطعتني «ندى» بفرحة:

ـ هل يمكنك أن ترسم أمي؟ أنا لا أملك لها أي صور، وأوشكت على نسيان شكلها. أريد أن أحتفظ بملامحها قبل أن تضيع، هل يمكنك فعل ذلك؟

ولأول مرة منذ أن قابلتهما ابتسمتُ للفتاة، وتناولت من يدها المفكرة، فقامت من جلستها بصعوبة وجلست بجواري، ثم راحت تخبرني ما تذكره من شكل أمها. كنت أسمع ما تقول وأنظر إلى وجهها هي، وأصنع من مجموعهما صورة متخيَّلة عن الأم، وفي النهاية لم أكُن أتوقع أن تكون النتيجة مُرضية إلى تلك الدرجة. لقد طارت فرحًا وكأنني بعثت أمها للحياة من بين طيات الدفتر. احتضنتني بشدة وذرفت من الدموع الكثير. حاولت تحمُّل عناقها بقدر ما أستطيع؛ فأنا أكره العناق، أكرهه كثيرًا.

وهنا، اعتدل «حسين» حتى صار مواجهًا لي تمامًا، بعينيه المنكمشتين، وصدره الصلب العاري:

- حسنًا يا «سليم»، ألا تلاحظ أننا حكينا وبكينا وأنت لم تخبرنا بعدُ عن سرك الخطير؟!

- هل تتهكم... تتهكم عليَّ الآن؟

- لا، أقسم لك إني لا أتهكم، أنا على يقين أنك تحمل سرًّا ما، وأنا أود بشدة أن أعرفه، طيب أخبرني، من الفتاة التي تتحدث عنها؟

- سوف تظن أني... أني مجنون.. إن أخبرتك بالحقيقة.

- كلنا مجانين يا عزيزي.

قالها وضحك عاليًا ثم أردف:

- هذا حال العالم كله، فلماذا يُفترض أن نكون مختلفين؟

- أنا.. أنا لم أعتد أن أحكي شيئًا... شيئًا لأحد.. هل تفهم؟ لا أعرف...

- حسنًا، قُل ما تستطيع بالطريقة التي تريحك، وأنا سأفهم.

- هناك فتاة.. كنت أسمع صوتها تستغيث بي.. كانت في غرفتي.. أنا متأكد.. متأكد من أن صوتها كـ... كان في الغرفة ذاتها.. وبعد الغيبوبة.. لقد دخلت في غيبوبة؛ لأني... لأني سقطت من على حافة النافذة.. أو ألقيت بنفسي من هناك.. وعندما سقطت.. رأيت أشياء.. لا أعلم.. أمي تقول إنها مجرد أحلام.. لكنها.. بكت بكاءً شديدًا عندما أخبرتها ما رأيت.. لا أعرف.. المهم.. لقد رأيت الكثير من الأشياء المفزعة.. رأيت الرجل.. الأسود.. والفتاة.. فتاة لم أتمكن من رؤية ملامحها.. لكن فمها كان محشوًّا بالأشياء السوداء.. كانت تختنق.. كانت تستغيث بلا صوت.. تقول إنني الوحيد القادر على مساعدتها.. ثم.. ثم ماتت.. وعندما... عندما استيقظتُ.. أدركت أنني يجب أن أبحث عنها.. لأساعدها.. كي... كي لا تموت.. ولهذا... لهذا تركت المنزل.

- امممم، حسنًا يا «سليم»، لقد فهمت موضوع الفتاة، يا إلهي، هل ألقيت بنفسك من النافذة حقًّا؟ من أي طابق؟

- الرابع.

- ياللهول.. هل تعلم ماذا كنت سأفكر إن كنت مكانك؟

- ماذا؟

- أن بقائي على قيد الحياة معجزة كبيرة، والمعجزات لا تحدث عبثًا، وإنما لغرضٍ ما، ضخم وجليل.. ربما كانت الفتاة هي هذا الغرض.

- هل... هل تسخر مني؟

ـ لا يا صغيري، أقسم لك مرة أخرى إنني لا أسخر منك، بل أقول ما أفكر فيه حقًّا.. والآن أخبرني عن بقية ما رأيت.. أخبرني عن الأشياء السوداء، وأعدك من الآن أني سأصدق ما تقول، إن لم أكُن قد صدقته فعلًا منذ اللحظة التي قرأت فيها الرسالة.

ـ حسنًا.. سوف أحكي لك حكاية من... منزلنا... سأحكي لك...

(٩)

«أمل»

حلَّ المساء ولم يعُد بعدُ. وقفَتْ في منتصف غرفته، تحتضن نفسها بذراعيها وتدور. تتأمّل غرفته الصغيرة المهلهلة. ما هذا العالم الذي يعيش فيه؟ ترى هل ترك المنزل ليهرب منه إلى عالم أفضل؟ لكن عقله هو منبع هذا كله، ولسوف يحمله في رأسه أينما ذهب.

ـ تُرى أين أنت الآن يا حبيبي؟

تساءلَتْ.

سمعت صفق باب الشقة فركضت تجاهه. كان «جمال» عائدًا من الخارج محمَّلًا بخبر ما، ربما يكون..

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء.

ـ ماذا تعني بـ«لا شيء»؟ ماذا فعلت؟

ـ تحدثت لصديق لي في وزارة الداخلية. أعطيته صورة له وسوف يفعل اللازم.

ـ فقط؟

توجَّه صوبها وهو يزفر كثور. ألقى مفاتيحه جانبًا، فأصابت المرآة وكسرتها، ثم صاح بها وهو مستمر في الاقتراب:

ـ وماذا تتوقعين أن أفعل غير ذلك؟ هل أبحث عنه في الشوارع؟ هذا الجاحد قليل التربية، أتريدينني أن أفعل شيئًا آخر؟ حسنًا، سأفعل شيئًا آخر..

اندفع جسده الثقيل نحو باب الشقة. خرج وصفق الباب خلفه بعنف. ترى أين سيذهب؟ هل سيبحث عنه؟ هل يريد أصلًا أن يجده؟ طرأت لها الفكرة فانفجرت باكية من جديد، وضحك صوتٌ ما في أذنها. صرخت فضحك من جديد قائلًا:

ـ لا تبكِ يا زوجة «جمال».. «سليم» لن يعود أبدًا.

ركضت نحو غرفتها هاربةً من ذلك الصوت اللعين. ذلك الشبح الذي لا يكف عن جَلدها وخمش روحها بأظافره. فتحت خزانة الملابس وأقحمت جسدها فيها. تكوَّرت على نفسها تحت الفساتين والأردية المتدلية من المشجب. احتضنتها وراحت تصرخ بلا انقطاع إلى أن فقدت الوعي.

مرَّ الكثير من الوقت، إلا أن الظلام كان لا يزال رابضًا في كبد

السماء. أفاقت لتجد نفسها في تلك العلبة المغلقة. فزعت وراحت تضرب جدرانها بأقدامها وكفيها إلى أن انفتح باب الخزانة. زحفت خارجة منها، وراحت تنظر حولها لتستدرك مكانها من العالم. كان العالم ذاته الذي تركته. خرجت مسرعة من الغرفة ولمحت ضوءًا ما يشع من غرفة «سليم»، وضجة غريبة تصدر عنها. ركضت تجاهها، وهالها ما رأت. كان «جمال» هناك بصحبة رجل آخر، وكثير من القطع الحديدية، وأشياء لم تفهم ماهيتها ولا سبب وجودها هنا، وفي هذا التوقيت بالذات، وبعد لحظات، تبيَّنت السبب. كانا قد أغلقا النافذة، وألصقاها بالغراء والمسامير بحيث لا تنفتح، وفوقها ثبَّتا قضبانًا حديدية ثقيلة، والسرير، ثبَّتا في ظهره سلسلتين غليظتين، واحدة على اليمين والأخرى على اليسار، وبكل واحدة منهما قفل كبير، وفي طرف الباب وضعا قفلين كبيرين فوق المقبض.

قالت مشدوهة:

ـ ماذا تفعل يا «جمال»؟!

ـ أحاول الحفاظ على ابن أخي، الذي لم تتمكَّن أمه من الحفاظ عليه.

(١٠)

«حسين»

أستمع إلى حكايته العجيبة، وأتأمل في الوقت ذاته الظلام البديع للمياه، وللسماء المرقطة بالضوء، وفي عقلي تدور موسيقى «موتسارت» على خلفية ما أراه وأسمعه. ترى.. هل هذا الجمال كله مسكون بالقبح كما يدَّعي؟

أتخيَّل أشياءه السوداء، فتتمثل أمامي. تتلاشى نغمات «موتسارت»، وتحل محلها موسيقى «فاجنر». في أي عالم نعيش يا ترى: عالم «فاجنر»، أم عالم «موتسارت»، أم أن عالمنا هو نشاز في نشاز، لا يحتويه قالب ولا يحكمه قانون؟!

لطالما تخيَّلتُ كل شيء يدور على كوكبنا جزءًا محسوبًا من سيمفونية كبيرة خفية لا يدركها أحد. حقًّا لا أستطيع العيش مع فكرة أن هذا كله لا معنى له. كل منا يؤدِّي نغماته المحدودة المكتوبة في نوتته الصغيرة،

أما نوتة «المايسترو»، التي تتجمع فيها كل نغمات عازفيه، وتتضح فيها الصورة الكاملة للمعزوفة (البارتيتورا) العظمى، العلوية، فهي مخفية عن أذهاننا الضئيلة المحدودة، لكني أحاول نسخ أجزائها وفك أحاجيها، لعلي أتمكَّن يومًا ما من الاستماع حينما أنصت، ومن الفهم حينما أفكر، ومن الرؤية حينما أنظر.

يستمر في التلعثم والتأتأة، وأحاول أنا جمع القطع المتناثرة من حكايته لأفهم، ولم أفهم، فقط شعرت بالكثير من المشاعر: الشفقة، الحزن، وربما الخوف.. الخوف ممَّا لا أبصره، من أولادي الذين لن أتمكن أبدًا من رؤيتهم، على حد تعبيره، من مخلفات الأرواح البائسة وعوادم النفوس.

أهكذا هو الفراغ؟ أهذه هي حقيقة الظلام؟

ربما.. وربما لا، لكن الأكيد أن هذا الفتى لا يكذب. لقد رأى هذا كله بالفعل، وكما يقول «بيكاسو»: «كل ما يمكنك تخيله فهو حقيقي».. ربما هو كذلك إذًا.

أكف عن التجديف وأترك جسدي يستشعر الاهتزازات الخفيفة للقارب. أغمض عينيَّ وأستمع. أتمدَّد قليلًا ثم أفتح عينيَّ لأبصر لوحة النجوم الباهرة. تغمرني اللذة، فأكاد أفقد تركيزي فيما يقال، وبالفعل يبدأ وعيي في الانسلال شيئًا فشيئًا مما حولي. أزداد اقترابًا من السماء، أو تزداد هي اقترابًا مني. أشعر أن جسدي يطير في الفراغ. أتمنى لو أنني أبصر أكثر ممَّا أراه، أتمنى لو أني أمتلك حاسة أخرى أكشف بها عمَّا بعد المنظور، ربما يمتلك «سليم» هذه الحاسة..

وربما تلك الحاسة هي الجنون!

* * *

- لا أعرف ماذا أقول أكثر.. هذا كل شيء.. عني.. وعن عائلتي، وعمّا.. عمّا رأيته بعينيَّ هاتين.

- ربما يا «سليم» يمكننا أن نرى بعيوننا المغلقة ما نعجز عن رؤيته بعيون مفتوحة.

- هل تصدقني؟

- أصدق أنك لا تكذب، وأصدق ما في كلامك من حقيقة على الرغم من غرابتها، لكن ما يصعب تصديقه أن تلك الحقيقة المجردة يمكن أن ترى مرأى العين، أن لها وجودًا ماديًّا، أن ما نفكر فيه وما نتذكره وما نشعر به وما نجعل الآخرين يشعرون به، هو كائنات حيه مثلنا. أننا نحمل على ظهورنا جثث ماضينا وبقاياه.. لكن انتظر لحظة...

أنتصب في جلستي، وأطرق نحو آخر مرمى لبصري. هناك دومًا ما هو أبعد من مرمى البصر.. أجل بالتأكيد:

- أجل أصدقك يا «سليم».. هناك دومًا ما هو أبعد ممَّا يمكننا رؤيته، الأمر يحتاج فقط إلى أن تكون في مكان آخر لترى، وقد ذهبت أنت إلى هذا المكان، هل تفهمني؟

يحدق فيَّ الفتى ولا ينبس.

- هل تعلم يا «سليم» أن قاعات «الكونسر» تختزن بداخلها النغمات الموسيقية، التي تُعزف فيها منذ بداية بنائها، وأن تلك الموسيقى المخزونة تؤثر على كل معزوفة جديدة وتتأثر بها، ولهذا تكون القاعات القديمة أكثر جمالًا من تلك الجديدة؛ لأن لها ذاكرة، ولأن ذاكرتها حية تتفاعل

مع كل نغمة جديدة، ثم تضيفها لمخزونها وتتفاعل بها في مرة تالية؟! لقد حاولوا مرارًا استنساخ أفضل قاعات «الكونسر» العالمية. قلَّدوا كل تفصيلة صغيرة من تفاصيلها، وعلى الرغم من ذلك، لم يكُن صوت الموسيقى متماثلًا في كلٍّ منها؛ لأن لكل منها ذاكرة مختلفة عن الأخرى. اختصاصيو السمعيات يعرفون مثلًا أن عزف «المارشات» العسكرية لمدة أسبوع في أي قاعة «كونسر» كفيلٌ بإفسادها للأبد؛ لأنها ستخزن فيها الضوضاء والنشاز، والنشاز لا يزول أبدًا من الجدران الخشبية.. هل تفهمني؟

لم يرد، فأردفتُ:

- ربما أشياؤك السوداء هي النغمات النشاز المخزونة داخل الجدران الخشبية لقاعة «الكونسر» الكبيرة التي نعيش فيها، وربما كذلك توجد معزوفات قديمة جميلة، تقبع في سكون، منتظرةً أن تبعثها وتمتزج معها نغمة عذبة جديدة.. أتدري؟ في النهاية كلٌّ منا يختار حقيقة ليصدِّقها، وأنا اخترت أن أصدقك.

- هل تسخر منـ... منِّي؟

- لا يا صغيري، صدق أني لن أسخر منك أبدًا، ببساطة لأن ما تقوله مهم، على الأقل هو كذلك بالنسبة لي، ثم إني أكنُّ دومًا معزَّة خاصة جدًّا للمجانين، وأنت تمتلك نوعًا فريدًا من الجنون، يمكنني أن أضعه في قلادة.

يرمقني بعدم فهم، فأشير نحو رأسي وأردف:

- هنا.. قلادة هنا يا صغير، تلك التي نزيّن بها عقولنا لتصير أجمل.

ألاحظ في وجهه شيئًا مختلفًا. طيف ابتسامة بدأ في الظهور لأول مرة منذ التقينا. يا إلهي كم هو مرهق أن نحمل أعباءنا وحدنا!

لقد كان الفتى وحيدًا، وحيدًا تمامًا.

يستمر القارب في الطفو وسط ظلام المياه والسماء. كم هو جميل الظلام، خاصة ظلمة الفضاء التي تنقل الضوء على الرغم من أنها لا تُضاء به، كهؤلاء الذين يحملون النور للعالم في قلوبهم المظلمة.

تذكرتُ فجأةً موعد إعادة القارب الذي تخطيناه بساعات كثيرة. بالتأكيد صاحبه غاضب الآن، لكنني لا أود العودة، وكأنني أمتلك كل شيء ثمين على هذا القارب. أمتلك الكثير من الأفكار والكلام الحقيقي. أمتلك النهر والسماء والنجوم. أنا في السماء الآن، فلماذا أتركها وأعود إلى الأرض؟

أُبصرُ نورًا ما يقترب من القارب، ينطفئ ويضيء بتواتر غريب وكأنها شيفرة ما، هكذا تمكَّن الإنسان من جعل الضوء يتحدث، لكنني لا أفهم تلك اللغة، وعلى الرغم من ذلك، فهمت أن الأمور ليست على ما يرام. ازداد النور اقترابًا حتى التصق بقاربنا، حاولتُ إمعان النظر لأتبيَّن هذا الشيء الواقف أمامي، فإذا بهم رجال شرطة، ومن الواضح أنهم غاضبون:

- بطاقاتكم.

انتصبنا جميعًا، وأخرجتُ أنا و«سليم» بطاقتينا الشخصيتين وسلَّمناهما له. قلبهما الضابط في يديه، ثم أشار تجاه «ندى»:

- ومن تكون الفتاة؟

في تلك اللحظة فقط، أدركت مدى غرابة وضعنا، فماذا يمكن أن أقول للضابط؟ هل أخبره أنها صديقتي، أم أنني أستلهم من رحلة موتها سببًا للبقاء على قيد الحياة، وأنني اخترت مرافقتها في تلك الرحلة الوعرة حتى لا تخوضها وحيدة؟! تلعثمتُ على غير عادتي، وشعرت بمدى الخوف الذي استشرى فجأة بين الجميع. صاح بي الضابط مرة أخرى:

ـ مَن تكون الفتاة؟

ـ حسنًا أيها الضابط، سأخبرك بكل شيء.. تلك الفتاة اسمها «ندى»، وقد تخلَّى عنها أهلها؛ لذلك انتقلَتْ للعيش معي؛ لأنها... لأنها مريضة وبحاجة لمن يعتني بها.

ـ ومع من تعيش أنت؟

ـ أعيش مع «ندى».

ـ هل تمزح يا حيوان؟! أقصد: مع من تعيش أنت والفتاة؟

ـ حسنًا، أعلم أن هذا يبدو غريبًا، لكننا نعيش وحدنا.

ـ وحدكما؟ هكذا إذًا... اصعدوا جميعًا إلى القارب.. هيا.

قالها ثم وجَّه أمرًا لأحد العساكر بربط قاربنا بقاربهم، والتحفُّظ علينا إلى حين وصولنا إلى أقرب قسم شرطة. قال إن الرجل صاحب القارب أبلغ عن شاب سرق قاربه، وأنه كان يحمل فتاة يبدو عليها الخدر، وأن الأمر بأكمله مثير للريبة. ارتجف قلبي حينها، لا لخوفٍ مني على نفسي، بل على «ندى» و«سليم» اللذين شلَّهما الرعب تمامًا مما يجري. لم يكُن أيٌّ منهما مهيأً لذلك. شعرت بذنب رهيب، وتساءلت: ترى هل يمكن أن أتسبب لهما بأي أذى؟

(١١)

«سليم»

أجلس وحدي في مكتبٍ ما بقسم شرطة مصر القديمة..

لماذا وحدي؟ أين ذهب «حسين» و«ندى»؟ أو أين ذهبوا بهما؟ مر وقت طويل تخطى الساعة، أو ربما الساعتين، ثم فُتح الباب، ودخل منه ضابط وبرفقته أمي.. وعمي «جمال». يا إلهي! ماذا أتى بهما الآن؟ كيف وجداني؟

ـ ها هو فتاكم يا أستاذ «جمال». أظن أنها أسرع عملية بحث وإحضار قمنا بها منذ فترة طويلة، فلم يمر على تقديم بلاغكم بضع ساعات حتى عثرنا على الفتى.

قال الضابط وهو ينتفخ فخرًا. جلس على مكتبه، ثم جلس أمامه عمي «جمال» دون أن ينظر نحوي:

ـ نعتذر عن هذا القلق الذي تسبَّبنا لكم به سعادتك؛ فالفتى مريض، ولم نعد قادرين على السيطرة عليه.

استمعتُ لكلماته ولم أجرؤ على الرد، وأبصرت أمي وهي واقفة أمامي دون أن تتمكَّن من الاقتراب مني، إلى أن أشار لها عمي «جمال» بالاقتراب والجلوس. ارتمت تحت قدمي واحتضنت فخذي وبكت. بكت كثيرًا إلى أن أبكتني. مسَّدتُ رأسها بيدي وقبَّلتُه، ثم استجمعت كل ما أملك من شجاعة وسألت الضابط:

ـ أين... أين «حسين».. و«ندى»؟

انتقل ببصره إلى عمي، فقام الأخير بلكز أمي في كتفها:

ـ أخبريه أين هذان.

رفعت رأسها ببطء وثبَّتت عينيها المغرورقتين بالدموع على عينيَّ. قالت بصوت مرتعش:

ـ لا يوجد أحد اسمه «حسين» يا «سليم».. ولا «ندى».. لقد كنت على القارب وحدك يا عزيزي.

ـ لا.. لقد كانا معي.. لقد رأيتهما وتحدثت معهما.. لقد تكلمنا عن... ورسمت أيضًا.. لقد صدَّقاني.. إنهما صديقاي الآن.

ـ يا حبيبي هذا غير ممكن، صدِّقني.. منذ شهور طويلة وأنت تعيش وسط عالم كامل من الهلاوس، تسمع كلام أشخاص غير موجودين وتحدثهم.. هم موجودون في عقلك فقط يا «سليم».

ـ أمي، لقد كنت أراهم كما أراكِ الآن.

ـ يا حبيبي هذا مستحيل.. أنت أعمى يا «سليم».. أعمى!

* * *

كم من الوقت مرَّ على هروبي من المنزل وعودتي إليه؟ شهر؟ اثنان؟ ربما أكثر. كم من الوقت مرَّ وأنا محبوس في تلك الغرفة التي تعرَّت من الرؤى، وصارت قفرًا محاطًا بالحديد ومزروعًا بالسلاسل؟ كم من الوقت مرَّ دون أن أتحدث إلى أحد، أو أن يتحدث أحد إليَّ، سوى هذا الطبيب الذي يزورني كل فترة ليفحص ما تبقَّى من عقلي، ويدَّعي أنه تمكَّن من إصلاحه؟ كم من الوقت مرَّ على تناولي تلك العقاقير اللعينة، التي حجبت عني أفكاري وبصري وغشيت عقلي، فصارت اليقظة كالنوم والنوم كالغيبوبة؟

الآن أغرق في صمت كثيف، لا يتخلله سوى صدى الضوضاء المتسلل من شقوق النافذة، وصوت الراديو في الشرفة المجاورة، الذي لا يتوقف عن ثرثرة لا أفهمها. يتحدثون عن هزيمة. قال الصوت إننا هُزمنا في حربنا مع إسرائيل، قال إن جنودنا لقوا حتفهم على الجبهة بالمئات، قال إن طائراتهم قصفت مطاراتنا وإن قواتنا انهارت تمامًا أمامهم. تذكرت أبي الذي مات في حرب مشابهة مع العدو ذاته، ثم تذكرت الفتاة التي كنت أبحث عنها دون أن أعرف من تكون. أشعر بالأفكار تتزاحم في رأسي ثم تتنافر، كحشد من البعوض يتقارب ويتباعد ثم يتناثر في الفضاء. أرى الفتاة، وأرى خلفها أبي في حلته العسكرية الملطخة بالدماء. أرى الكثير من الجنود المقتولين، تختلط دماؤهم بدماء الفتاة، وتصنع بركة كبيرة حمراء لزجة تحت قدمي. أغرق فيها شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى أنفي. أشعر بمذاقها المعدني داخل فمي. ألقي نظرة أخيرة على حشد القتلى أمامي، ثم تبتلعني الدماء.

القتلى دومًا متشابهون.. ولدمائهم اللون ذاته..

أحس بوعيي يتلاشى. ها أنا الآن في محبسي الكريه، عالق مع نفسي الجديدة، التي لم تعُد ترى سوى العتمة. لا وجوه، ولا أشياء سوداء، ولا حتى العملاق المظلم، الذي رأيت بظلامه كل شيء. لا «حسين» ولا «ندى» ولا أحد سواي. صارت رؤياي ذكرى بعيدة بمذاق مر أخشى أن أستعيده.

هو الذهان إذًا كما يقولون.. الجنون.

بالتأكيد لم تكُن تلك رؤى، إنما هو جنون محض امتلك زمام عقلي لبرهة، لكن الطب تمكَّن من علاجي منه. ربما ما يراه الجميع هو الحقيقة الوحيدة التي ينبغي تصديقها، ربما هم محقون، وأنا مجرد مخبول لا يستحق سوى أن يعيش مكبلًا بالسلاسل في غرفته الواقعة خارج حدود الزمان والمكان.

ربما.

(١٢)

جندي

أشعر بالعطش، كلنا كذلك.. أسير ويسيرون بغير هدى في قلب الصحراء. وحدتنا في شمال سيناء، وقيادتنا في غربها، والاتصالات انقطعت بيننا تمامًا. إلى أين نذهب وسط هذا التيه؟ الصحراء أمامنا وخلفنا، والعدو قابع في مكان ما لا نعلمه. بدأ جسدي يخذلني، تحوَّل العطش إلى صداع، والجوع إلى وهن، والقلق إلى خوف. في البداية كان قائد الوحدة لا يكف عن إلقاء الأوامر، والآن صمت، وكان العسكري الأجرد الذي لم يتخطَّ عمره الخامسة والعشرين يغني أغاني «عبد الحليم» الحماسية.. ثم صمت، وأجهزة اللاسلكي كانت تخبرنا بخريطة الحياة وسط أرض الموت.. ثم صمتت. الآن الصمت يخيِّم على كل شيء، وليس هناك سوى صوت الصحراء المفزع يصفِّر في آذاننا. تذكرنا الراديو، فرُحنا نقلِّب بيأس بين المحطات، حتى التقط الجهاز

محطة صوت العرب. شعرنا بالأمان فور سماع صوت المذيع، وكأننا على بُعد خطوة من منازلنا. قال إن فيالق الجيش المصري حاصرت الإسرائيليين في القطاع الأوسط من سيناء. تهلّلنا فرحًا وتبادلنا تهاني النصر، ثم عدلنا من خطة الهرب عن طريق القطاع الجنوبي، وتوجهنا بلهفة نحو القطاع الأوسط.

كان القيظ حارقًا. الهواء الساخن يدخل صدري فيلهبه، والشمس تبرك فوق رؤوسنا كالجحيم. العطش لا يُحتمل، والجوع كذلك، والأرض قفر، لا نبت فيها ولا هوام، حتى لاحت في الأفق البعيد حركةٌ ما. لم نتبيّن في أول الأمر ماهيتها. ركضنا باتجاهها فإذا بها مجموعة من الماعز. واصلنا الركض حتى وصلنا. حاصرناها بيننا، وتخيَّرنا من بينها الإناث، ثم انقضضنا عليها. لم أشعر بنفسي وأنا ألكم العسكري الأجرد في وجهه، وأختطف من فمه ضرع المِعزاة وأُقحمه في فمي. استحلبت لبنها كله. كنت أمضغ لحمها بأسناني لعلّها تسكب في فمي المزيد، حتى سالت منها الدماء، واختلط طعمها المعدني بطعم اللبن بطعم الدموع المنهمرة من عينيَّ. لم تكُن الوحيدة التي سال دمها. كانت الدماء كثيرة في محيطنا، واللحم المتمزِّق والغثاء. وبعد أن انتهيت منها، مسحت وجهي وأهلت عليه بعض الرمال الساخنة لأتطهر، ثم ارتميت أرضًا وتحسست الورقة في جيبي.

ما زالت متماسكة. لم تتآكل مثلي ولم يهتكها تهتُّك روحي. ما زالت فارغة تمامًا، فالقصيدة في عقلي ترفض أن تولد وسط هذا القبح كله.

مشينا حتى غابت الشمس، واسترحنا قليلًا، ثم واصلنا المشي تحت شمس جديدة. وعندما أوشكنا على الوصول إلى القطاع الأوسط،

وجدنا الطائرات الإسرائيلية تحلّق فوق رؤوسنا، وسياراتهم تُحيطنا من جميع الجهات. تعالت صيحاتهم:

ـ «كاديما» يا مصري، «كاديما» يا مصري.

ففهمت أنهم يقصدون أن نتوقّف، ولمَّا لم يكُن هناك سبيل للهروب، توقفنا وسلمنا أسلحتنا. طلبوا منّا أن نخلع ملابسنا ففعلنا، ووقفنا تحت الشمس الحارقة بأجساد عارية وكرامة مهدورة. بسؤال لم يفتأ يتردد في عقولنا:

ـ لماذا كان المذيع، على الراديو، يكذب؟!

* * *

عندما كنت أحدِّق في الورقة الفارغة وأحاول الكتابة، كنت أعلم أن تلك القصيدة ستكون الأخيرة. أردت لها أن تكون قصيدة عن كل شيء، عن سر العالم، ومفتاح التاريخ، وخلاصة الحب والكراهية.. كيف يمكن لهذا كله أن يجتمع في سياق واحد؟ لم أكُن أعرف بعدُ، لكنني كنت في الطريق إلى ذلك.

الأصوات.. لا بُدَّ للأصوات أن تستمر، حتى تتدفَّق الأبيات من رأسي. الصحراء تغذيها بقدر ما تُجوعني، والظلام يحييها بقدر ما يميتني. أجل، ينبغي للأصوات أن تجد طريقها إلى الورقة البيضاء المتغضِّنة في جيب سترتي الحربية..

هي تغنِّي وأنا أنصت..
هي تقول وأنا أكتب..

هي تحيا وأنا..
أموت.

* * *

اقتادونا إلى مجهول جديد كالخراف، هكذا كنا نشعر في قرارة نفوسنا، ونبكي بغير دموع. حتى الخراف يستر الصوف أجسادها، أما نحن فلا ساتر لنا من الشمس والعيون سوى سراويلنا التحتية. جعلونا ننبطح على وجوهنا وقتًا طويلًا. كنا بين شقي رحى من السخونة بين الشمس والرمال الملتهبة. عاودني العطش من جديد أشد من ذي قبل، وعندما وصلت المياه، أخبرونا أن بإمكان من يريد الشرب أن ينهض ويتقدَّم للأمام. قام البعض مترنحين نحو شاحنة الماء ولم أقُم. شيء ما أخبرني ألا أفعل، أهو الجبن؟ لم أعرف. وما هي إلا لحظات حتى فتحوا النيران على كل من قام فماتوا جميعًا.

ماتوا وهم عطشى.

أذكر أني تقيَّأتُ، وغرق وجهي في قيئي حتى كدت أفقد الوعي، أو بالفعل فقدته. لم أشعر بنفسي إلا وأنا مقتاد نحو مكان بعيد عن الجميع أنا وزميل آخر. أمروني أنا وزميلي أن نحفر في الرمال، ففعلتُ مجبرًا. استغرق الأمر دهرًا حتى صارت الحفرة بالحجم المطلوب، وعندها ضرب اللعين زميلي بالرصاص في صدره، فسقط قتيلًا. دفعه بقدمه نحو الحفرة حتى استقر في قاعها، وما هي إلا لحظات حتى صوَّب مسدسه نحو كتفي الأيسر فأصابها، وسقطت فوق جثة زميلي بجسد تكاد روحه تفارقه من فرط الألم. حاولت الحركة فلم أستطِع، حاولت الصراخ فوقف الصوت في حلقي يأبى الخروج؛ فالنفس الواحد يبعث

فيَّ من الألم ما لا يمكن احتماله، وبعدها وجدت جثتين تُلقيان فوقي، كانت إحداهما للعسكري الأجرد الصغير.

دُفِنَّا جميعًا في قلب الجحيم، نحن والموت والألم، وورقة بيضاء متغضنة في جيب سترتي الحربية، لم يسعفني الوقت لكتابة قصيدتي عليها، القصيدة التي تحكي قصة كل شيء..

قصة العالم والتاريخ، وخلاصة الحب والكراهية..

قصة الحرب.

الجزء الثاني



(١٣)

«لبنى»

الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أبي نائم داخل غرفته المغلقة وعينيه المغلقتين وعقله المقفول بإحكام على عالمه الخاص، وأمي في مكانٍ ما لا أعرفه. في الغالب نائمة في مكتبها الفاخر في مستشفى «بيوتي» للتجميل التي تمتلك كل منهما الأخرى، والذي قررَتْ، لسببٍ ما أن تهاجر روحها إليها تاركةً خلفها كل شيء آخر، أنا وأبي وأسرتنا الافتراضية، حتى تخصصها القديم كطبيبة أمراض عصبية ونفسية.

وأنا.. في سيارتي أشق طريقي من بيتنا في الزمالك لمنطقة المقابر بالبساتين. قبل أن أصل بمسافة آمنة أوقفت السيارة وترجلتُ منها. أخرجتُ من حقيبة كبيرة عباءة حريرية سوداء، وارتديتها فوق بنطالي الجينز الممزق والـ«تي شيرت» الأسود المطبوع عليه شعار «ميتاليكا». وبعدها جاء دور الخمار الذي أسدلته على رأسي ورحت أدس فيه

خصلات شعري العاصي أو «الكيرلي»، كما يحبون تسميته، ثم دلفت إلى السيارة وأكملت رحلتي الخاصة إلى الموت.

كان الخمار والعباءة شرطًا أساسيًا من عدة شروط يجب توافرها في الفتيات أعضاء جمعية «تكريم» لتغسيل الموتى من النساء، تلك التي أنشأتها أستاذة شريعة معروفة في جامعة الأزهر مع كثير من الفتيات ذوات الدين والخلق الكريم والزهد المحمود في الحياة الدنيا. أنا أيضًا زاهدة فيها، لكن بطريقة أخرى. لست مثلهن ولا حتى أشبههن في شيء. لن تتوقع إحداهن أبدًا أنني أنهيت منذ شهور رحلة علاج وتعافٍ مرهقة من إدمان الكوكايين... والرجال. شهور طويلة قضيتها وحدي في قاع بالوعة بحجم ثقب أسود، ابتلعت بداخلها كل ما تبقَّى لديَّ من احترامي لذاتي وثقتي بالعالم. كنت أطارد عبثًا لحظة يقظة واحدة، أرى فيها الأشياء كما كانت تبدو قبل أن يصيبني المرض اللعين. تخيلت أن لعنة ما يمكن أن تنزاح بلعنة جديدة، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، فحينما وصلت إلى اليقظة التي لطالما تمنيتها، أدركت أن لحظة واحدة لا تكفي، ولا حتى بضع دقائق. كان الأمر مُذهلًا في البداية، انفتحت أبواب حواسي المغلقة على مصاريعها، وانطلق من داخلي نهم عجيب لا يكف عن طلب المزيد، فالدقائق لا تكفي، ولن تكفي.

أردت أكثر وأكثر..

إلى أن عرفت أن كل ما هو أكثر قد نفد بالفعل، ولم يبقَ سوى مخلفات كارثة أكبر من احتمالي وقدرتي على التصرُّف. وأبواب حواسي التي فُتِحَت توًّا، أُقفِلَت من جديد بأبواب مصنوعة من ضباب فولاذي لعين، غير قابل للاختراق. وقد كنت وحدي في هذا كله، مع ما تستطيع «ميرنا»

منحه لي من الوقت والاهتمام وسط زحام عملها والتزاماتها الكثيرة.

أخبرتني إحدى فتيات الجمعية، ذات مرة، أن عملية تغسيل الموتى يجب أن تتم على أيدي أناس صالحين وملتزمين بكل تعاليم الدين؛ لأن هناك دومًا على مقربة من الميت كيانات مظلمة فوق قدرتنا على الحس والإدراك.. والاحتمال. والصالحون وحدهم يمكنهم مقاومة أثرهم المخيف والحفاظ على أنفسهم من السقوط، أما ضعاف القلوب والإيمان فسوف يلحقهم أذى عظيم منهم لا محالة. كان من المفترض حينها أن أخاف وأهرب من هذا كله من دون رجعة؛ فأنا لست صالحة، ولا أعرف أين هو طريق الصلاح لأسلكه، لكن قلبي ظل ثابتًا وأكملتُ ما بدأته لسببٍ لا أفهمه، هو السبب ذاته الذي يجعلني أتقرب من الموت بأي طريقة ممكنة.

أحيانًا ما أزور مقبرة العائلة ليلًا. أقصُّ خُصَلًا من شعري وأدفنها في التراب. أرسم وجهي على الورق ثم أطويه وأغرسه في طين الصبار. أجرح ذراعي وأنزف بضع قطرات من الدماء في أركان المكان، ثم أعود للبيت ممتلئة بنشوة إرسال بعضي للجانب الآخر.

في ذلك اليوم، أنهيت التغسيل وسلكت طريق العودة إلى المنزل. أعلم جيدًا أنه لا يمكن لفتاة مثلي التوقُّف بالسيارة قبيل الفجر في شوارع القاهرة. الأمر خطير جدًّا، ولهذا يجب أن أنطلق كالسهم دون توقف حتى أصل إلى جراج بنايتنا، لكن في تلك الليلة توقفت. مررت على ذلك المجذوب الذي أراه كل ليلة في المكان ذاته. كان مَعْلَمًا أساسيًّا بالنسبة لي تمامًا كالشجرة الملتوية كراقصة الباليه التي يقيم تحتها، لكنه لم يكُن وحده كالعادة. كان وسط جماعة من الشباب البادي عليهم السُّكْر

بوضوح. يبرحونه ضربًا ويركلونه ككرة بينهم. توقفتُ في مكان يبعد عنهم بالقدر الكافي لئلا يروني في حين يمكنني أنا رؤيتهم. راقبتهم وهم يحاولون خلع ملابسه باستخدام مطواة، حينها كان الرجل قد فقد الوعي تمامًا. تجمدت في مكاني وأصاب عقلي شلل تام. ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟ لم أدرِ..

وبعد عدة دقائق، كانوا قد مزَّقوا عددًا كبيرًا من طبقات الملابس الملتصقة بجسده، حتى صار شبه عارٍ. أغمضت عينيَّ وأحسست أني أراقب كابوسًا ما في عقل أحدهم. أقف على حافة رأسه ولا أستطيع الولوج لإنقاذه. فكرتُ في إطلاق بوق السيارة للفت نظر الجيران أو البوابين، لكني خفتُ أن ألفت نظرهم إلي..

- كم أنا جبانة.

فكرتُ..

- وحقيرة.

أحسست بضوضائهم تبتعد، فأعدت النظر لأجدهم يركضون مبتعدين عنه، وهو ظل في مكانه بلا حراك.. وأنا كذلك.

انتظرت أن تصدر عنه أي حركة لأطمئن إلى أنه ما زال حيًّا فأواصل طريقي بضمير نصف مستريح، لكنه ظل ساكنًا كالموتى. لم أفكّر كثيرًا قبل أن أندفع بالسيارة نحوه. خرجتُ منها وأسرعت بفحصه بنظرة سريعة فوجدته مخضبًا بالدماء ومكدومًا في أكثر من موضع، عيناه مغلقتان على موت أو إغماءة، لم أكُن متأكدة، إلى أن فحصت نبضه فوجدته حيًّا. كان هزيلًا وأنا في كامل لياقتي. كان عاريًا وأنا أحمل في

حقيبة سيارتي قطعًا كثيرة من ملابس التغسيل والتدريب. كان مُلقًى على رصيف بارد وقذر وأنا في طريقي إلى بيتي الفاخر الدافئ.

ـ هذا ليس عدلًا.

فكرتُ.

جرجرتُ جسـمه بصعوبة ووضعتـه على المقعد الخلفي للسـيارة. انطلقتُ بسرعة إلى أقرب مستشفى، وعندما وصلت، تركته وركضت للداخل. وقفت في صالة الاسـتقبال الفسيحة الفارغة، وتحدثت مع موظف الاسـتقبال. حكيت له بالتفصيل عمَّا حـدث. في البداية كان مبتسمًا، ثم تلاشت الابتسامة شيئًا فشيئًا. قطب حاجبيه وقال بسخرية:

ـ هل تعرفين أين أنتِ يا آنسة؟ نحن من أكبر المستشفيات الخاصة في مصر. هل تتوقعين أن نستقبل حالة كتلك؟

ـ وهل ينبغي أن يكون المصابُ في حادثٍ مستثمرًا دوليًّا حتى يتم إنقاذ حياته؟!

ـ أرجوكِ يا آنسة، لا داعي لهذا الجدال. أظن أن عليكِ تسليمه إلى أقرب قسم شرطة. هم سيتولون أمره على أفضل ما يكون؛ فحالته خارج نطاق اختصاصنا تمامًا.

ـ وخارج نطاق واجبكم؟

ـ بالتأكيد.

قالها وعلى وجهه ابتسامة باردة، لم أستطِع معها سوى أن أسبه هو وأبويه بفمي وأصابعي، ثم أركض مبتعدة عن خرائه الأنيق بأسرع ما يمكن.

- هل أتوجَّه إلى القسم الآن؟

فكرتُ، ثم أصابني الذعر حينما تذكرت أن محفظتي في حقيبة «الجيم»، وأني نسيت نقلها إلى حقيبة يدي تلك، وفيها بطاقتي الشخصية ورخصة القيادة والسيارة وكل بطاقات عضوية الأندية. لن أستطيع الذهاب للشرطة إذًا، حتى إن حاولت إدخاله مستشفى حكوميًا سأكون في ورطة من دون أوراقي الشخصية.

حسنًا، تبًّا لهم، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم..

خلعتُ عنه ما تبقَّى من أسمال مهترئة، ثم ألبسته زي التغسيل خاصتي: العباءة والخمار، وانطلقت عائدة إلى المنزل!

لم يكُن تخطي البواب صعبًا عندما دلفت بالسيارة إلى الجراج؛ فهو نصف نائم والرجل خلفي مغطًى بالكامل. جرجرت جسده الضئيل كطفل، وصعدت به سلم الجراج المؤدي إلى داخل العمارة. بالطبع لم أدخل به شقتنا، بل الشقة المقابلة لها، منزل «ميرنا»؛ حيث غرفتي المستأجرة ومكمني الملون. أغلقت الباب بهدوء حتى لا أوقظها. دخلت مباشرة إلى الحمام. وضعت الرجل في حوض الاستحمام وفتحت فوقه سيلًا من الماء البارد، وكما توقعت تمامًا، لم تمر لحظات حتى أفاق من غيبوبته القصيرة. كان مذعورًا ومتألمًا ويئنٌّ كحيوان جريح دون أن يبدي أي مقاومة تُذكَر، ما شجَّعني على التقاط اللوفة ومداهمته بها. حاولت كتم أنفاسي لأتجنَّب رائحة البول التي تفوح من كل جزء من جسده، وتخيلت أني أقوم بتغسيل جثة متحللة. فركت معظم أجزاء جسده بعنف، حتى الجروح والكدمات التي خلَّفها هؤلاء البغال،

وأتساهل في تنظيفها بالطريقة ذاتها. كان يتأوّه ويحدّق في وجهي بذعر وأنا أسكب نصف زجاجة الشامبو فوق رأسه الأشعث وأغسله رغمًا عنه، وبعدها كل ما تبقى من زجاجة الديتول. ربما لم تكُن تلك هي الطريقة المناسبة لإسعاف شخص مصاب، لكنني لم أكُن أفكر بعقلي على أي حال منذ أن قررت التقاطه من الشارع وإقحامه في حياتي. أحضرت الكيس المهمل في دولاب الحمام، الذي من المفترض أن يكون حقيبة إسعافات أولية، وبدأت في تضميد جروحه وتطبيب كدماته.

تبدّلَتْ بالتدريج نظراتُ الذعر على وجهه. ارتخى جسده الهزيل واستسلم تمامًا لما أفعله، على الرغم من توتري وعنفي في التعامل مع مواضع ألمه. صار يحدِّق في وجهي باطمئنان لا يتناسب مع وجع جسمه، وجلسته المخجلة بين يدي، ناهيك عن الاعتداء المخيف الذي تسبب في ذلك كله. تجاهلت عينيه العجيبتين بقدر استطاعتي لأنتهي من هذا الهراء بأسرع ما يمكن قبل أن تستيقظ «ميرنا»، لكن ها هي تطرق باب الحمام عندما أوشكتُ على الانتهاء، ولم يتبقَّ سوى أن أبحث له عمّا يرتديه وإيجاد طريقة لإلباسه إياه، ثم أبدأ بعدها عراكًا طويلًا مع عزيزتي «ميرنا».

* * *

كانت «ميرنا» وستظل هي صديقتي الوحيدة التي سمحت لها برحابة صدر أن ترى روحي الحقيقية، وأن تشاركني تفاصيل حياتي. لم أشعر معها بالخطر وبالرغبة العارمة في الهروب كما أفعل مع الآخرين، ولهذا أصبح بيتها هو الجُحر الذي أختبئ فيه من الناس والشوارع والجامعة، من أبي وأمي ومنزلنا المملوء بكل شيء، والخالي من كل شيء، من إدماني

للكوكايين والرجال وبغضي لهم.

طول الفترة الماضية لم تكف عن التحدث بحماسة عن المقالات الجديدة التي تُترجمها لعميلها السري من الإنجليزية للعربية، والتي تتقاضى عليها أجرًا مرتفعًا بشكل مريب، إلا أنها لم ترتَب في الأمر بعدُ. هي فَرِحة، ولم يخطر لها على بال أن عميلها السري هو أنا. لم أملك خيارًا آخر لمساعدتها؛ فنفسها عزيزة وطبعها حاد.

عندما ماتت جدتها وتركتها وحيدة في شقتها الكبيرة المقابلة لشقتنا في الزمالك، لم تترك لها سوى وصية متضرعة بعدم بيع الشقة تحت أي ظرف؛ لأنها تحمل بين جدرانها ماضيها مكتملًا وماضي آبائها. وجدت نفسها وحيدة تمامًا، متورطة مع حبها غير المبرر لمهنة الصحافة. تتقاضى أجرًا لا يتعدى الألفي جنيه في الشهر، ما جعلها تبدأ في بيع أثاث منزلها، وشيئًا فشيئًا صار المنزل خاليًا تمامًا إلا من مرتبة كبيرة وتلفاز وجهاز «لاب توب» وخزانة ملابس ومطبخ، ولأنها محاربة لم تستسلم. بدأت في الترويج لنفسها بصفتها مصورة محترفة تقوم بعمل جلسات التصوير بأشكالها كافة، ولم تتخلَّ في الوقت ذاته عن مهنتها الحبيبة في الصحافة. حاولتُ مساعدتها فلم تقبل، فلم أجد في وسعي سوى الادعاء بأني شخصٌ آخر يحتاج إلى خدماتها في الترجمة، إلى جانب استئجار غرفة في شقتها واستخدامها كمرسم واستراحة آمنة وسط حياتي اللعينة.

أشرقت الشمس علينا في غرفة الاستقبال الفسيحة الخالية، بعد أن أمضينا الكثير والكثير من الوقت في جدال عنيف بسبب وجود رجل مشرد ومتسخ ومجذوب في غرفتي. كانت مذعورة ومستفَزَّة من برودي وجرأتي غير المقبولة. صرخَتْ في وجهي بوابل من الأسئلة..

كيف جرؤتُ على جلب غريب للمنزل؟ وهل جُننتُ تمامًا حتى أحمّمه وأبدل له ملابسه؟ كيف وصلتُ إلى تلك الدرجة من قلة الحياء؟ لماذا أرفض أن يغادر الآن وأصر على إبقائه في شقتها التي تسكنها فتاتان تقضيان جل وقتهما بالخارج؟ هل ستتركانه وحده بالمنزل؟ ولماذا؟ ما السبب العويص الذي يستدعي القيام بتلك المخاطرات كلها؟ هل جننت؟

هل جننت؟

تردَّدَ السؤال في عقلي عشرات المرات، وطمس أثره كل ما كانت تقوله «ميرنا». انقطعت عنها تمامًا. صرتُ وحدي مع سيجارتي الأخيرة وسؤال لعين لا إجابة له:

هل جُننتُ؟

ألقيت السيجارة أرضًا ودعستها بغلٍّ، وأنا أفكر في إمكانية العثور على علبة أخرى في مكانٍ ما. بالتأكيد هناك واحدة في غرفتي. انسحبت من أمام «ميرنا» بوقاحة اعتادت عليها مني ووقفتُ مترددة أمام باب الغرفة التي لم تعد ملكي بالكامل. لم يدُم ترددي لأكثر من بضع ثوانٍ، دفعت بعدها الباب بعنف مقصود ودخلت. لم ترصد عيناي الرجل في بادئ الأمر، ثم تبينت وجوده غير المبرر على الأرض خلف حامل اللوحات خاصتي. اقتربتُ منه بخطوات حذرة، لأجده متشبثًا بدفتر من دفاتري نصف الفارغة، وقلم.. هل كان يكتب حقًّا؟!

(١٤)

المجنون

ـ ما زلت أهوي نحو قاعٍ مظلمٍ..

لا ضوء فيه ولا دليل..

ولأنها كرةُ..

وتسبح في فضاءٍ كَرَوِّي..

فأنا أطير إذا سقطت..

وأرتفع عند النزول.

ها أنا ذا... أحاول عبثًا تدوين أفكاري على الورق، كما يحاول ضائع الصحراء جمع زخات المطر في خُفِّه المثقوب، لكن الشيء القليل أفضل من اللاشيء، ولهذا أنا لا أكف عن المحاولة. أحاول في كل لحظة الحفاظ على تركيزي لأنتهي من هذا الكتاب. الأمر في منتهى الصعوبة ويكاد

يكون مستحيلًا، لكنني لن أيأس.. لا ليس الآن؛ فقصتي مع الجنون لا بُدَّ أن تُكتب، حتى إن لم يقرأها أحد، حتى إن أحرقتها بالكامل بعد انتهائي من كتابة الفصل الأخير، وهو ما سأفعله على الأرجح. هناك قوة أعجز عن مقاومتها تجبرني على الكتابة، والوقت يداهمني وزورقي الصغير يوشك على الغرق؛ لذلك لا أملك رفاهية الإطالة أو التنقيح.

هذا كتابٌ بلا منطق، قصة بلا حبكة، عبارات مبعثرة، بلا قالب أو إطار.

لم أفتقد أحدًا هناك في مستشفى العباسية، فلم تعد ذاكرتي تعمل كما اعتدتها. ازدحم عقلي بالتفاصيل حتى امتلأ عن آخره. لقد بدأت رحلتي إذًا، وبدأت الساعة تدق في أذني بصوت صاخب، في هذا المكان الذي أقف فيه وحدي، بين أرض من يُنعتون بالعقلاء، وأرض من يُنعتون بالمجانين. هي منطقة تسقط فيها النعوت والأسماء. تتحرر فيها المعاني من سلاسل الألفاظ الثقيلة، وتطير في الهواء كالبلالين الملوَّنة.

إنها لحظة من الاستنارة تتوسط مرحلتين من العمى، العمى الذي يسببه الظلام التام؛ حيث لا يمكنك رؤية شيء على الإطلاق، والعمى الذي يسببه النور الساطع؛ حيث لا يمكنك رؤية شيء كذلك. هو برزخ من الحكمة بين عالمين، أحدهما مجهول حتمًا وإجبارًا والآخر مجهول جهلًا واختيارًا، والجنون كان سفينتي المباركة التي حطَّتْ بي على هذا البرزخ.

لكن السُّفُن لا تطيل البقاء، ولا تلبث أن تصل حتى تعد عدتها للرحيل.. كيف يمكن أن أصف الأمر؟

أشعر أنني تحررت من الجاذبية الأرضية، وكأنني منطاد يلقي أحماله الواحد بعد الآخر ليرتفع أكثر وأكثر في السماء، فيرى النور، ثم يخترق النور. يبصر العالم من أعلى ويضحك. الأحمال تجعل المراكب تستقر، تمنحها الثبات فوق الأرض، تمنحها أمل البقاء، لكن البقاء لعنة لو تعلمون، والاستقرار موت، والأرض بوار؛ لذلك أنا أرتفع نحو الأعلى بلا توقُّف.

لكن.. في لحظة ما ليست ببعيدة، سأواصل الارتفاع حتى أتخطى الحد الفاصل بين النور والظلام. سيبتلعني الفضاء الواسع، حيث لا هواء، ولا جاذبية ولا ضوء. سأنقطع عن كل شيء وأُعتقل داخل عقلي المظلم للأبد. تلك هي المحطة الأخيرة لسفينة الجنون، الظلام الدامس والعزلة التامة؛ ولهذا.. أنا أكتب بلا انقطاع. أكتب في أثناء رحلة صعودي، قبل أن ينضج جنوني ويكتمل، قبل أن أتلاشى وأنعدم.

هل تعرفين «أوجست ستريندبرج»؟ إنه كاتب مسرحي سويدي مجنون..

يقول «ستريندبرج»: «ما إن ينجح مخلوق في اختراق أسرار العوالم العليا، حتى يُعرِضَ الناسُ عنه ويتهموه بالجنون لكي لا يفعل غيره مثلما فعل، ومنذ ذلك الوقت أصيب الناس بالجنون على درجات مختلفة، وبالأخص الذين يعتبرون من العقلاء، أما المجانين وحدهم فهم العقلاء في الحقيقة؛ لأنهم يستطيعون أن يروا ويسمعوا ويحسوا بما لا يُرى ولا يُسمع ولا يُحس، ولو أنهم لا يستطيعون أن يرووا للناس ما يجدون».

لكني ما زلتُ في طور السقوط إلى الأعلى، ولم أصل بعدُ إلى القاع

الموجود في سقف الكون؛ لهذا.. سأقص عليكِ حكاية كوكبنا.. قصة سفينة الحمقى.

* * *

في الماضي السحيق، هذا الماضي الذي يسبق كل ما نعلمه، كان البشر يعيشون على ستِّ أراضٍ في أماكن متفرقة من الكون الفسيح. لم تكُن الأراضي الستّ تماثل أرضنا أو حتى تشبهها، بل إن البشر أنفسهم لم يكونوا مثلنا.

في البداية، كانت الأرض الأولى، وبعدها توالت الهجرات واستعمار أراضٍ جديدة، حتى نجحوا بالفعل في الاستقرار على ستة كواكب. عاشوا حياة يعمها السلام والمحبة، حياة لا تمتُّ لما نعرفه بصلة.

في لغاتنا الحالية، لا نملك من الكلمات ما يمكن أن نصف به الأراضي الأخرى، أو البشر الأوائل؛ فاللغة وليدة الواقع، وإن كنا نتحدَّث عن واقع مختلف جذريًّا، فبالتالي نحن نحتاج إلى لغة مختلفة جذريًّا، وما سأفعله هنا هو تجاوز لا يجوز للحكي، وكأنني عصفور كناري يحاول سرد ملحمة «هوميروس» بتغريده الجميل القاصر، الذي لا يملك سواه.

كان للبشر الأوائل أجسادٌ وعقولٌ مختلفة تمامًا عمَّا نملكه الآن، وبالتالي كانت قدراتهم أعلى وأرقى وأعقد من قدراتنا.. أو بتعبير مختلف: خارقة لما نعرفه ولما اعتدناه، وعلى الرغم من ذلك، لم تفلت من قبضة الوباء الشرسة. بدأ مرضٌ لعينٌ في الانتشار بين المواليد في جميع الأراضي في الوقت نفسه. وُلد الكثير والكثير من الأطفال المختلفين، أجسادهم

أصغر، أمخاخهم أصغر، قدراتهم أقل، إلا أن هذا كله لم يكُن هو ما أثار فزعهم.

كان بهم شيء ما مظلم، شيء خطير وغريب، وكلما مرت السنوات، كان هذا الظلام يكبر وينضج ويؤتي ثماره التالفة. كانوا مصابين في عقولهم ومنطقهم ونفوسهم وقدراتهم التي لم تعد فائقة كأسلافهم، نفوس معطوبة مريضة تعجز عن الترقِّي وتنحدر دائمًا نحو القاع، نحو الظلام والشذوذ والكراهية.. ومع مرور الوقت، تطورت الكراهية إلى غضب، والغضب إلى مؤامرات، والمؤامرات إلى عنف، والعنف إلى حروب، حروب لم يشهد لها البشر الأوائل ولا الأراضي الأولى مثيلًا من قبل.

لقد كانوا مجانين!

أما العقلاء الأوائل، فقد بذلوا كل ما استطاعوا لعلاجهم، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل. وظل الجنون ينتشر كالسرطان، والأدهى أن الأجيال المصابة كانت تتزاوج وتُنتج أجيالًا جديدة مماثلة، وهكذا تأكد العقلاء أنهم أمام بداية سلالة جديدة ملعونة، لن يمكنهم السيطرة على شرورها.

هل يقتلونهم؟

لكنها ستكون مجزرة بشعة لن يتحملوا العيش بذنبها.. ماذا يمكن أن يفعلوا إذًا؟

وبعد الكثير من التفكير المُضني والسجال المستمر، تم التوصُّل إلى حل أرضى الجميع. سوف يقومون بجمع كل المجانين من الأراضي

الست، وترحيلهم إلى أرض سابعة، يعيشون فيها حياتهم المظلمة بمنأى عن العقلاء، وهكذا لن يُريق أحدٌ من الفريقين دماء الآخر.

وقع الاختيار على كوكب جميل مناسب لأجسادهم محدودة القدرة، تعيش عليه أنواع كثيرة من الكائنات، منها نوع يشبههم إلى حد بعيد، وإن كان أقل ذكاءً وجمالًا وتطورًا، إلا أنه على الرغم من ذلك قد قطع شوطًا مبهرًا من التطوُّر عبر ملايين السنين، حتى وصل إلى تلك المرحلة. هذا الكائن هو ما نسميه اليوم إنسان «النياندرتال».

هل سمعتِ من قبل عن سفينة الحمقى؟ تلك التي كان يُجمع فيها المجانين في عصر النهضة، ثم تُترك لتهيم وتنساب بلا وجهة في الأنهار والبحار. كان نفيًا قسريًّا من العالم الحقيقي، إلى مجهول ناءٍ، ليعيش العقلاء في أمان وهدوء بعيدًا عن هؤلاء المرضى الملاعين، في حين يضيعون وحدهم في بحر الجنون، ألا يذكركِ هذا بحكايتنا؟

تم جمع كل المجانين، ووُضعوا على سفينتين عملاقتين، لكلٍّ منهما تصميمها المتفرِّد. كانتا شديدتَي الضخامة بمقاييسنا، كل منهما بحجم قارة أرضية، وبالطبع لم يكُن للمجانين أن يبدؤوا رحلتهم الطويلة نحو العالم الجديد بمفردهم؛ لذلك تطوعت مجموعات من العقلاء لمصاحبتهم في تلك الرحلة، ومساعدتهم في استعمار الأرض السابعة. انطلقت السفينتان في الفضاء بتكنولوجيا لم ولن نعرفها أبدًا، وعندما وصلتا إلى الأرض، حطَّتا فوق مياه المحيط. الأولى على المحيط الهادي، والثانية على المحيط الأطلسي، وكان ذلك منذ ما يقارب خمسين ألف سنة قبل الميلاد. تم إطلاق المجانين من السفينتين، وبقي العقلاء في عالمهم الجديد الطافي فوق المياه الأرضية، يراقبون ويرشدون في محاولات

دائبة لعلاج المصابين بالوباء، وتعليمهم، ومساعدتهم على التأقلم مع الأرض الجديدة والجنس الآخر الذي كان يحكمها. وبمرور الوقت، عرف التاريخ، أو بالأصح الأساطير، السفينتين على أنهما جزيرتان، أو قارتان، قارتان حملتا حضارات متقدمة بدرجة لا تتناسب مع التطور الطبيعي للكائنات الأرضية، وفي يوم وليلة غرقتا في مياه المحيط واختفيتا بلا أثر، أو هكذا ظن الناس.

وعلى الرغم من عدم العثور على الجزيرتين في أعماق المحيط حتى يومنا هذا، فإن أسطورة الحضارات الغارقة والفردوس المفقود ظلت عالقة في أذهان الجميع. تشحذ آمال الباحثين، وتشعل خيال الشعراء.

حضارتان عُرفتا باسم قارة «مو»، وقارة «أتلانتس».

على مرِّ العصور، امتلأت الجدران العتيقة بإشارات إلى الحضارة الراقية القديمة التي جاءت من السماء ثم عادت يومًا ما من حيث جاءت، لكن أحدًا لم يذكر ما حدث على وجه الدقة كما سأذكره أنا.

كان الكولونيل الإنجليزي «جيمس تشيرشوارد» من أكثر المستكشفين الشغوفين بالبحث والكتابة عن قارة «مو»، وفي عام ١٨٦٨م، التحق بأحد الأديرة في الهند، وتعلم على يد الكهنة لغات قديمة وأسرارًا عجيبة. كانت إحدى المخطوطات التي اطَّلع عليها الكولونيل، والتي كانت مخفية في صندوق مغلق، في مكان مؤمَّن تمامًا، تتحدث عن تلك الأيام الحلوة التي كانت فيها أرض «مو»، عندما كان الناس يتنقَّلون إلى الجنوب والشرق بين أناس مسالمين حكماء أجسامهم شفافة!

هكذا قالت المخطوطة، وهكذا كان العقلاء..

وفي عام ١٩٦١م، قامت رحلة علمية، برئاسة الأب «يورجين شبانوت»، تهدف إلى البحث عن قارة «أتلانتس»، وحينما وصل «شبانوت» إلى مصر، وبالتحديد في معبد صغير بإحدى قرى الصعيد، وجد على أحد الجدران أخطر عبارة في تاريخ مصر كله على حد تعبيره..

تقول: «كانت هناك إمبراطورية في هذا المكان البعيد، في هذا الاتجاه، واختفت كلها، وهاجر أهلها وجاؤوا هنا.. ثم اختفوا خلف قرص الشمس»!

ناهيك عن الوصف الدقيق الذي وصفه «أفلاطون» لقارة «أتلانتس»، ولضياعها المفاجئ هي وكل سكانها قبل تسعة آلاف سنة من الوقت الذي عاش فيه هو، وكيف أن حقيقة وجودها انتقلت له من كهنة الفراعنة الذين احتفظوا بسرها لآلاف السنين.

تم إطلاق سراح المجانين في الأرض الجديدة، وكان اللقاء بينهم وبين سكان الكوكب الأصليين كلقاء الأسود في حلبة مصارعة. كلاهما نهم، وكلاهما عنيف، وكلاهما قاتل.. إلا أن الجنس الأرضي كان أكثر قوة، والجنس الموبوء أكثر لؤمًا، وهكذا خُلق التوازن الذي حافظ على كلا النوعين من الهلاك، لمئات ومئات من السنين. خمسة عشر ألف سنة بقيت فيها الحروب مستعرة بين المجانين وإنسان «النياندرتال»، حتى انتصر الجنس الأول، وانقرض الجنس الثاني.

وظلت حضارة العقلاء منارة هادية للإنسان الجديد، ترشده من بعيد، وتشير له نحو الحقيقة بأصابع من نور. تُعلمه عن الأرض وعن السماء وعن النجوم، وتحاول رفعه من ضحالة العنف والشهوة والمرض

إلى رحابة الإنسانية الحقيقية. لم يكُن الأمر سهلًا في البداية، لكنه بدأ في التحقق مع مجموعات صغيرة، أحبتهم وتعلمت منهم، ورسمتهم على جدران المعابد، مجنحين يطيرون في السماء، ويهبطون من السماء، ويشيرون نحو السماء.. وعندما وجد العقلاء أنهم نجحوا في زراعة بذرة طيبة في تلك الأرض الملعونة، وأن بذرتهم قادرة على النمو والبقاء، قرروا العودة. رحلت سفينة «مو» في البداية، ثم تبعتها «أتلانتس»، وخلَّفت وراءها قلة قليلة من العقلاء قررت البقاء متخفية في سراديب سرية تحت جبال «الهيمالايا»، وفي أماكن أخرى لم يسمع بها أحد. مخلفة أساطيرَ وحكايات لا أول لها ولا آخر، عن زُوَّار السماء ذوي الأجساد الشفافة والعيون الزرقاء الذين كانوا هنا يومًا ما، ثم رحلوا خلف قرص الشمس، وتركونا وحدنا مع عقولنا المعطوبة، في جحيم الأرض السابعة!

تلك هي حقيقة كوكبنا، وهذا هو أصل الظلام.

يقول الإمام «النفري»: إن الأسماء حجب على المسمى. وأنا أقول لكِ: إن مظاهر الأشياء حجب على جوهرها. ألم تثبت لنا العلوم الحديثة أن ما نراه وما نسمعه وما نحس به ليس سوى نتيجة لقدراتنا شديدة المحدودية على ترجمة معطيات الكون؟ الألوان ليست حقيقة، وإنما نتيجة معالجة عيوننا للأطوال الموجية المختلفة. الأصوات ليست حقيقة، وإنما هي معالجة أمخاخنا لذبذبات، مجرد ذبذبات. ملامس الأشياء وأشكالها ليست حقيقة، فالحقيقة أنها تتكون من ذرات متباعدة، متحركة.

هل تتخيلين أن الجدار أمامك ليس مصمتًا، وإنما مُخرَّم كالمصفاة، وأن المقعد الذي تجلسين عليه يتألَّف من بلايين الذرات المتحركة كمجرَّات الفضاء، وكأننا نجلس على كون كامل، ونحمل في أجوافنا

آلاف الأكوان؟! والبشر القدامى كانوا يدركون هذا كله.. لم تكُن حواسهم كحواسنا، حتى إنَّ إدراكهم الزمن لم يكُن كإدراكنا إياه. نحن معتقلون في «زمكان» رباعي الأبعاد، وهم تمكنوا من الترقي تكنولوجيًّا وروحيًّا حتى فكوا شفرات عدد أكبر من الأبعاد المكانية والزمنية. تخطوا عقبة الزمن الخطي المتجه في اتجاه واحد. ربما تتساءلين لماذا أخبرك بهذا تحديدًا الآن. السبب هو رغبة انتابتني على غير العادة في إثبات أنَّ رؤاي ليست مجرد هذاءات.. أنَّ «آنيا» ليست مجرد هلاوس. وإنما هي بشر بمواصفات مختلفة، قررت أن تتواصل معي وتخبرني بالكثير. ربما بأكثر ممَّا أتحمل، أو بأكثر ممَّا تتحملون. رسائل «آنيا» التي تنتقل في حدود زمنية مختلفة عن حدودنا، أكثر رحابة وأشد غرابة، والعقبة الوحيدة التي يواجهها مَن يقرر التواصل معنا، نحن الساكنين بكوكب المجانين، هي أن جنوننا وقدراتنا المحدودة تعوق إدراكنا إياهم. نحن مغمورون في واقعنا حد الغيبوبة، غير قادرين على إدراك ما هو أبعد من مرمى بصرنا، ولهذا فالحل الوحيد هو أن يتواصلوا مع القلة التي حل رباطها بالواقع، وتحررت من سطوته عليها.

من تنعتونهم أنتم بالمجانين، هم الوحيدون القادرون على التواصل مع العوالم الأخرى، في تلك الفترة القصيرة جدًّا، قبل أن يفقدوا عقولهم تمامًا.

هل تريدين معرفة المزيد؟

هناك.. في عالم «آنيا» الشفاف، لا تنطق الألسن بالحروف، بل تحلِّق الكلمات من عقلٍ لآخر كأسراب الطيور. تتبخَّر الأفكار من رأس، لتعود وتتكاثف ثم تتساقط مطرًا فوق عقل آخر، هذا ما ندعوه بلغتنا

«التخاطر».. أجل، لقد كانوا يتواصلون بالتخاطر. الألسنة تدندن الموسيقى، والعقول تبث أفكارها عبر الأثير لتستقبلها عقول أخرى. هل تساءلتِ قبلًا كيف أن «آنيا» تحدثني في عصرنا هذا، وقد كانت تعيش منذ عشرات الآلاف من السنين؟ سأخبركِ كيف..

«آنيا»، ذات الجسد الشفاف والعينين الزرقاوين، ذات الشعر المضيء كخيوط الشمس، والعقل الملوَّن كقوس قزح. شغف قلبَها حبُّ رجلٍ، فتزوجته، وعاشا كشعاعَي ضوء مترافقين ينطلقان معًا في أرجاء الأرض الثالثة، ذات الأقمار السبعة والطيف المكون من ثلاثين لونًا. تقافزا في الهواء متباعدَين عن جاذبية ضعيفة لا تُبقي الأقدام فوق الأرض، بل تحتفظ بالأجساد حولها كما تحتفظ شمسُنا بأجرامها، لا تحرقها، ولا تضيعها في الفضاء. يطير جسداهما خِفَّةً، وقلوبهما فرحًا، فوق أرض ساحرة كأحلام الشعراء. عيون تحتضن عيونًا، وعقول ببوابات مشرعة، تبعث الرسائل وتتلقاها بلا انقطاع. أفواه تدندن الموسيقى على إيقاع دقات قلوب مضطربة، من فرط العشق واللذة.

هكذا كانت حياتهما قبل أن تنبت البذرة في أحشائها شيئًا آخر، جسدًا لا يفتأ يكبر يومًا بعد يوم، ويتشكَّل على سمت جديد لا يشبهها ولا يشبهه. أصابها حزن غريب لم تختبره من قبل قط، ولم تدرك ماهيته. كان الأمر وكأنها تستقبل رسائل لا معنى لها، إلا أنها ثقيلة مظلمة.

- تُرى.. هل تكون طفلتها كهؤلاء الأطفال المرضى المتزايدة أعدادهم بين مواليد اليوم، أصحاب الأجساد الصغيرة، والجلود المعتمة، والعقول المعطوبة؟

تساءلَتْ..

مرت أشهر حملها متباطئة، حتى ولدت الفتاة، وصدقت مع ولادتها الظنون والمخاوف. هي فعلًا منهم، هؤلاء المرضى المجانين، هؤلاء الحزانى المضطربين محدودي القدرة. ولأول مرة في حياتها، انحدرت من عينها الزرقاء دمعة فوق جبين طفلتها، صغيرتها الحبيبة، التي لا تكف عن الصراخ والنهش في صدرها لتمتص منها الغذاء والحياة. لم تكف عن إرسال الرسائل المبهمة الكئيبة إلى نفسها طول سنوات طفولتها ومطلع شبابها، إلى أن كبرت الفتاة، في الوقت ذاته الذي بدأت فيه الأراضي الأخرى في جمع المجانين، لإرسالهم إلى الأرض السابعة. وعندما كبرت صارت رسائلها أكثر إظلامًا، وكأنها بخر أسود يتصاعد من رأسها، ويحتال أشياء صغيرة قاتمة، تحوم في الهواء، وتلتصق بالجدران، وتزحف نحو أي شخص يقترب منها لتفترسه. لم تكُن قادرة على استقبال رسائل أمها بمخها الصغير المعطوب. كانت تحتاج إلى لغة أخرى تتناسب مع محدوديتها وقصورها، ولم تكُن تلك اللغة قد نشأت بعدُ، فلم يزدها صمتُها إلَّا حزنًا ومرضًا. وعندما شبَّت عن الطوق، شيء ما ذو قوة هائلة جذبها نحو أشباهها الكثر. شيء ما لا تفهمه ولا تراه، لكن «آنيا» كانت تراه رأي العين.

كتل من الظلام تتجسَّد بوضوح بمرور الوقت، وبخر أسود يرتفع فوق الرؤوس، ويحجب النور، ويحتضن هؤلاء المرضى بألف ذراع سوداء.

عنف شديد وأعمال تخريب انتشرت في كل مكان. أساليب غريبة في الأذى وجرائم حديثة العهد على العالم الشفاف، صارت تحدث كل يوم بلا انقطاع. هل تسببت صغيرتها في أيٍّ منها؟ لم تكُن تعرف،

ولم يزدها ذلك إلَّا همًّا وقنوطًا، حتى حانت لحظة حاسمة، وبدأت الجهات المسؤولة في جمع المجانين لترحيلهم إلى الأرض السابعة. بحثت عن الفتاة في كل مكان، فلم تجدها. حاصرها شعورها بالفقد، وما تراه من ظلام محيط في كل مكان، حتى أوشكت على الانهيار، ولم تستنقذها سوى فكرة واحدة. ستتطوع على إحدى السفينتين المسافرتين للأرض السابعة، وستبحث عنها وتنقذها وتستقطبها بعيدًا عن أشباهها قبل أن تصل السفينة إلى وجهتها، وتضيع منها إلى الأبد. لكنها بحثت ولم تجد، ففهمت أن صغيرتها تشق طريقها المجهول، على متن السفينة الثانية، وأنه لا بُدَّ من مواصلة رحلة بحثها على الأرض الجديدة.

وبالفعل وصلت «آنيا» إلى كوكبنا.. وخطت، لأول مرة في تاريخنا، أقدام العقلاء وأقدام المجانين معًا على كوكب الأرض، لتُطوى صفحة وتبدأ أخرى أكثر قتامة.

بحثت «آنيا» في كل مكان بلا جدوى.. انتظرت كثيرًا من دون أن يثمر انتظارها عن شيء، أثقلتها وحدتها وآلمتها، فراحت تبعث الرسائل لأناس غير موجودين، أو لم يوجدوا بعد. رسائل عابرة للزمن، لا تموت بموت أصحابها، بل تبقى معلقة في الأثير إلى أن يستقبلها عقل أحدهم، وهذا العقل كان في رأسي أنا!

هل فهمتِ الآن كيف كانت وما زالت تحدثني، على الرغم من أنها رحلت عن عالمنا منذ عشرات الآلاف من السنين؟ حتى رفاتها الآن لم يبقَ له أثر بكل تأكيد، لكن الأفكار لا تزول بزوال أصحابها، والرسائل لا تفنى بفناء المرسل.

هل عرفتِ الآن أن كلام «آنيا» لي ليس هذاءً؟ هل أدركتِ حقيقة أن الهذاء الحقيقي هو ما نراه من هذا العالم؟ هل فهمتِ أن حزننا جنون، وغضبنا جنون، وكراهيتنا جنون، أن ما نقترفه كل يوم بحق العالم وبحق أنفسنا هو محض جنون، أن سفك الدماء وتبرير إراقتها وشن الحروب وإبادة البشر هي قمة الجنون؟ هل صدَّقتِ أن هذا كله يحدث في أرضنا نحن فقط، الأرض السابعة؟ لأنها منفى المجانين ومأواهم؛ حيث تُركنا مع مرضنا وبؤسنا وجهًا لوجه، وحيدين في خضم معركة لا نهاية لها مع أمخاخنا المعطوبة وعقولنا الضامرة، وأننا يومًا ما سوف نُفني أنفسنا بأنفسنا، كما أفنينا جنسًا كاملًا من قبلُ على الرغم من قوته وتوحشه، ذلك الإنسان القديم الذي سكن الأرض السابعة قبلنا، والذي انقرض بعد نزولنا فيها واستعمارنا إياها.

وأنا لهذا لا أدَّعي الحكمة فيما أقول؛ لأني أعرف حق قدري وقدر التلف في جهاز تفكيري.

فمن أنا لأنصحكم؟

تبًّا لي ولكم..

كلنا سواء في هذا الظلام.

أشعر وكأنني أتنقَّل بسلاسة من زمنٍ لآخر، ومن مكانٍ لمكان. أجد نفسي هناك أحدق في «آنيا» وهي تبكي. تمشي بثقل بعد أن كانت تطير، على أرضنا ذات الجاذبية اللعينة كالأصفاد. تتساقط دموعها نحو الأرض بعد أن كانت أفكارها تحلِّق نحو السماء. تبحث وتبحث بلا انقطاع عن فلذة كبدها الوحيدة، في كل مكان محتمل، ولا يسفر

بحثها إلا عن الخيبة. وبعد شهور متصلة من البحث، بدأت من جديد في استقبال الرسائل المظلمة، تلك التي لا تصفها الكلمات، تلك التي تنتشر في الأثير فتلوثه، وتتكتل على عيون الناس فتحجب عنها الرؤية، وعلى آذانهم فتصمها، وعلى أرواحهم فتخنقها ببطء، وهذا ما كان يحدث لـ«آنيا»، إلا أنها بدلًا من الهروب من هذا الظلام كله، كانت تقتحمه وتتتبع منابعه. قادها الألم إلى غابة نائية، لم تبصر فيها من الأحياء شيئًا، وكأن الموت اختارها لإقامته الشخصية، فانفضت من حوله الأرواح كلها. الأشجار ميتة، والأعشاب صفراء ذابلة، والهواء خالٍ من أي مخلوق قادر على الطيران.. لا حيوانات هناك، ولا صوت، ولا شيء سوى جثةٍ مرتمية على الأرض.

هل هي جثة ابنتها؟ أجل.. كانت كذلك.

وكأنها شمعٌ يذوب أو ماءٌ يتبخَّر.. روحها تنخلع ببطء من جسدها، ويرحل عنها بعضها شيئًا فشيئًا من فيض الألم.

هذا لا يُطاق.. لا يُحتمل..

يمكن للمرء أن يتحمل أي شيء سوى أن يفقد ابنه الوحيد، فالأرواح لا تتجزأ. إما أن تعيش كاملة أو لا تعيش، وها هو جزء من روحها قضى عليه الموت، فكيف يمكن لبقيتها أن تستمر في الحياة؟

بثت ألمها عبر الأثير. رسائلها التي صارت مظلمة كرسائل ابنتها، تطير بأجسادها السوداء. تعبر البلاد والأزمنة والعقول، حتى تحط أخيرًا في رأسي أنا، فأموت معها ثم أحيا لأشهد بقية موتتها. أراها وهي تواري الجسد الميت التراب. تذرف من الدموع سيلًا، حتى تبتل

الأرض من تحتها وتئن، ثم تهيل التراب عليها وتسويه وتمسده وكأنه رأس صغيرتها. تنكفئ على وجهها فوق القبر وتحتضن الأرض بقوة، وتقرر أن تبقى، والبقاء مع الموتى رحيل عن كل ما عداهم. تظل قابعة هناك لا تتحرك، ليلة وراء ليلة، يتخشَّب جسدها ويبدأ في التوحُّد مع الأرض كصخرة قديمة، ورأسها لا يكف عن إرسال الرسائل.

بخر أسود يتصاعد وينتشر في أرجاء الفراغ. هو ذاته البخر الأسود الذي أصابها من عقل صغيرتها المعطوب كرصاصة. كم ذرفت من الدموع والظلام حينها قبل أن تموت؟

الكثير والكثير..

أعرف هذا يقينًا.. فذاك الظلام كله في رأسي الآن.

* * *

(١٥)

«لبنى»

انتابتني فجأة رغبة عارمة في رسمه. كان وجهه يشبه الصخرة، وعيناه كقطرتي مياه لامعتين فوقها. نسيج متناقض بين الحيوية والموت، بين الصلابة واللين، بين الصمت التام والحكي الساحر. لطالما آمنت بأن كل شيء يتكلم. الحكايات حولنا في كل مكان، تقصها الأفواه والعيون والابتسامات والدموع، الأشجار والأبنية القديمة بشقوقها الملتوية وأبوابها المغلقة. الشوارع بكل مخلفات قلوب وعقول السائرين عليها من مئات السنين أو أكثر، جدران البيوت وملابس الجدات وصناديق حليهم. في كل تفصيلة من تفاصيل العالم حكاية ما بلغة فريدة، قد لا يتمكن من إدراكها أحد، وقد يدركها البعض ويعجزون عن ترجمتها، وقد يترجمها بعض البعض للغة فوق أرضية، فيتهمهم الناس بالجنون. ربما لهذا السبب جاء الفن كسبيل مشروع لممارسة الجنون..

نحن نترجم الأحاجي التي نراها وحدنا.. ونعيد تدويرها لأحاجيّ جديدة يقدر الناس على رؤيتها!

كنت أملك في الغرفة كل ما سأحتاج إليه من أدوات للرسم، ولم ينقصني سوى السجائر، الكثير منها. حاولتُ بقدر الإمكان إنهاء العراك مع «ميرنا» ببضعة وعود لم أنوِ في الحقيقة الوفاء بها. أردتُ أن أفرغ الساعات المقبلة من كل شيء عدا هذا المجذوب الجميل. أغلقتُ علينا باب الغرفة بعد أن ذهبت هي، واقتربت منه بحذر لأسحب حامل اللوحات من أمامه، وعندما فعلتُ لم ينزعج كما توقعت. فقط نظر إليَّ مباشرةً وأطال النظر.

كان حديثًا مكتمل الأركان.. عدا أنه خالٍ من الكلمات.

جهَّزتُ كل الأدوات وبدأت في رسمه. لم يكُن الأمر صعبًا؛ لأنه ثابت تمامًا، لا يتحرَّك شيء فيه سوى يده التي لم تتوقف عن الكتابة منذ الصباح. أحيانًا كان ينظر إلى الصفحة التي يكتب عليها وأحيانًا أخرى ينظر إليَّ، أما جسده فلم تتغير وضعيته لساعات طويلة. تمثَّل أمامي أكثر من هدف. في البداية سأرسم وجهه الصخري وعينيه الثرثارتين وشعره الأشعث، وبعدها سأرسم الحكاية التي تتطاير من عقله وبشكل ما غير مفهوم تعبر الغرفة وتتكاثف ثم تتقاطر فوق عقلي، وفي النهاية سأرسم روحه. أنا أرى طيفًا منها الآن، لكنها ما زالت تستحي من أن تتمثل كاملة أمامي. هي فقط مسألة وقت، أنا متأكدة من هذا.

* * *

لا أعرف ما اسمك... أتعلم؟ نحن متشابهان بشكل ما. كلانا بلا هوية، وكلٌّ منا يفقد عقله بطريقته الخاصة. ربما سبقتني أنت إلى الوجهة التي هي مآلي حتمًا، لكنني ما زلت أسير على الطريق بخطى ثابتة.

إن بيني وبين العالم جدارًا شفافًا وكثيفًا. ليس كالماء، هو أقرب إلى المخاط. أرى من خلاله كل شيء، ولا أرى من خلاله شيئًا. أجلس داخل رأسي وأستند إلى حائط ما خلف عينيَّ. أراقب ما يحدث وأراقبني. أراقب النافذة المحفورة في جمجمتي، والتي أطل منها على الحياة. كل شيء يدور على شاشة سينما عملاقة سيئة الصنع خلف الجدار المخاطي، وأنا.. أقف خلف نفسي وخلف العالم.

أعلِّق الكون في قلادتي..

فلا يتبقى لي موضع لقدمي..

فأواصل السير فوق العدم.

أنا لا أنتمي إلي الأماكن التي أعيش فيها وأزورها، ولا أنتمي إلى الأشخاص المحيطين بي. ربما أنتمي إلى الموت أكثر من أي شيء آخر. لعلِّي كنت «زومبي» في حياة أخرى، أو «روبوت»، أو حلمًا مزعجًا في رأس شخص مختل. ربما أنا مجرد شخصية سيئة البناء في رواية يكتبها مؤلف هاوٍ. ربما أنا أشياء كثيرة، لكني بالتأكيد لست تلك الفتاة السمراء الجميلة، التي تعيش في الزمالك، وتدرس في الجامعة الأمريكية، وتمتلك كل شيء. تلك الفتاة التي يناديها الناس «لبنى». لا... أنا لست «لبنى». أنا لا أمتلك أي شيء على الإطلاق، لا عقلي ولا نظري ولا جسدي. أنظر إلى كل عضو به وأتحسسه، أتحسس ملامحي، فلا يبدو لي أيٌّ من

هذا مألوفًا. وجهي غريب تمامًا، والعالم من حولي غريب كذلك، وكل شيء كالحلم.

أنا أعيش في كهف «أفلاطون»، وأعرف أن ما أراه هو ظلال على جدار، أما الحقيقة، الأصل الذي أرى ظله، فهو خلفي بالكامل، وأنا مقيدة في اتجاه مخالف، لا يمكنني رؤية شيء سوى الأخيلة.

ترى، هل سينتهي هذا كله يومًا ما؟ كم مضى على بداية تلك اللعنة؟ أظن أن البداية كانت في المرحلة الإعدادية، عندما بدأ كل شيء حولي في الذوبان. بدا العالم وكأنه لوحات متتالية لرسام تأثيري، رتوش من الضوء على بقع لونية مهزوزة. هذا ليس العالم الذي يعيش فيه الجميع. بالتأكيد ليس هو.

كان هذا كله كافيًا لأتخذ قرار الذهاب إلى طبيب نفسي بحثًا عن حل، والأهم بحثًا عن إجابة. كانت زيارة سخيفة تشبه إلى حد كبير استشارة ميكانيكي كفؤ للمساعدة في إصلاح سيارة معطَّلة. سوف يسألك الميكانيكي عددًا من الأسئلة المعلَّبة ليتمكَّن من اكتشاف الجزء المعطوب. ستنبهر بمعرفته تلك الأسماء كلها، فلكل قطعة معدنية في تلك الماكينة اسم واضح، ولكل عطل اصطلاح علمي، وقائمة من المشتريات التي ستضطر لأن تبتاعها لإصلاحه. الأمر بتلك البساطة والميكانيكية، ولا يمت بصلة للروح العجيبة التي تسكن تلك المركبة.

وقد كان العطل الذي تمكنت أخيرًا من لقائه مكشوف الوجه هو اضطراب «تبدد الواقع/ تبدد الشخصية». قالها الطبيب ببساطة شديدة، واستقبلتها بابتسامة في غير موضعها، تجاهلها هو تمامًا وهو يكتب

«الروشتة»، تلك التعويذة التي يُفترض أن أستخدمها للتخلُّص من اللعنة. سلَّمني إياها ثم صمت معلنًا موعد الانصراف. كان عقلي مكتظًّا بعشرات الأسئلة التي أجهضتها فورًا و آنا ألتقط الورقة وأغادر الغرفة. لم أسأله حينها إن كان قد قرأ قبلًا عن نظرية المعرفة، لم أسأله: «هل نرى العالم لأنه موجود يا طبيبي العزيز، أم أنه موجود لأننا نراه؟ ماذا إذا صح الاحتمال الثاني؟ هل ينتفي وجود العالم لأنني لا أراه؟ هكذا يمكن أن تكون مجرد وهم في عقلي أيها الأحمق.. وداعًا الآن».

* * *

حلَّ الظلام بسرعة ونحن لم نزَل على حالنا. هو يكتب وأنا أرسم، والحكايات تدور في فضاء الغرفة. كنت قد ضبطت الهاتف على الوضع الصامت فلم أنتبه إلى عشرات الاتصالات من أمي. غريب.. يستحيل أن يكون هذا بدافع من القلق عليَّ، فهي دومًا مطمئنة ما دامت بشرتها مشبعة بـ«البوتكس» و«الكولاجين»، وشعرها مغطى بالصبغة المناسبة لموضة الموسم. أثارت فضولي فاتصلت بها. لم تسألني أين أنا، ربما لأنها لم تعُد للمنزل من الأساس فلم تكتشف غيابي عنه. أخبرتني مباشرة عن احتياجها إليَّ في مهمة بسيطة يمكن أن أحصل منها على عمولة سخية، ولأني لا أرفض المال أبدًا وافقت بصدر رحب.

كان عليَّ لقاء زبون بالنيابة عن أمي، سيذهب لمعاينة بناية نمتلكها وينوي هو شراءها، وإن تمكنت من إقناعه وإتمام عملية البيع، سأحصل على نسبتي فورًا في اليوم ذاته.

تذكَّرتُ فجأة أن الرجل لم يأكل شيئًا منذ البارحة، وكذلك أنا. تبًّا لي، لكن هو.. أسرعت إلى المطبخ وأعددت طبقًا كبيرًا مملوءًا بالشطائر

والفاكهة. وضعته على الأرض أمامه، وحاولت أن أختلس نظرة واحدة الدفتر لكنه لم يدعني. أحسست أن اليوم لا بُدَّ أن ينتهي عند هذا الحد؛ فأنا أتهاوى من التعب، وكذلك هو. كان لا بُدَّ أن آكل شيئًا، لكني اكتفيتُ بسيجارتين وافترشت الأرض في ركن بعيد من الغرفة ونمت. لن تتخيل «ميرنا» أبدًا أنني أنام في الغرفة ذاتها معه. ستظن أنه رحل وأني نائمة وحدي، ما سيوفر عليَّ معركة جديدة لا أقوى على الخوض فيها الآن.

وفي الصباح، كتبتُ ورقةً وعلقتُها على باب الغرفة من الخارج:

- حبيبتي الجميلة الطيبة.. أعرف أنك أرقُّ من أن تزيدي من عذاب هذا المسكين. لقد تأكدتُ من أنه مُسالِم تمامًا وغير خطير، فلا تقلقي، وأنا اضطررت للذهاب في مشوار عمل وسأعود في أقرب فرصة لألملم الفوضى.. أحبك.

وبعد أن علقت الورقة، أضفتُ «ميرنا» لقائمة الـ«بلاك ليست» على هاتفي المحمول؛ حتى لا أضطر للرد عليها، ليس الآن.

وصلت إلى العنوان أخيرًا. كانت المرة الأولى التي أخطو فيها داخل حي الجمالية.

أمسكت بالورقة التي أعطتني إياها أمي قبل أن أترجَّل من السيارة، ورحت أحفظ المعلومات بها. المساحة، عدد الشقق، مساحات الشقق، اتجاهات الواجهات، كل التفاصيل الممكنة، لعلِّي أبدو مُقنِعة لهذا العميل المجهول الذي سأكسب من ورائه كثيرًا من المال. اتصلت بالرقم، فأخبرني أن الطريق مزدحم وأنه سيصل في خلال ساعة على أفضل

تقدير، ساعة كاملة سأضطر لقضائها هنا إذًا. تمشيت ببطء حول البناية. كانت قديمة متهالكة، تزحف الشقوق فوق جدرانها كالثعابين..

أو كالديدان!

تحسستُ الجدار وأنا أجول ببصري باحثةً عن شيء ما لا أدري ما هو، حتى رأيت عجوز تُخرج رأسها من شرفة في الطابق الأرضي. كانت تأكل اليوسفي، وتبثق البذر باتجاهي مباشرة، وما لبثت أن أشارتِ لي بيدها لأقترب. اقتربت بالفعل فبادرتني:

- أنتِ غريبة عن هنا؟

- نعم.

قلت.

- عمَّ تبحثين؟

- لا أبحث عن شيء، أنتظر شخصًا ما فقط.

- من؟

أدهشني تطفلها، لكنها كانت ظريفة بشكل ما فأجبتها:

- أنا ابنة أصحاب العمارة يا حاجة، وجئتُ لأقابل شخصًا ما هنا.. في بنايتنا.. التي نمتلكها.

كانت هناك ابتسامة لطيفة على وجهها، ما لبثت أن اختفت وهي تقول:

- من أبوكِ؟

ضحكت من غرابتها وثقتها الغريبة بنفسها، لكن الملل دفعني إلى مواصلة الحديث معها:

ـ «سليم» يا حاجة، «سليم مراد الحسيني».

أطرقَت طويلًا دون أن تنبس، حتى أوشكت على مغادرتها، لكنها قطعت الصمت بعد برهة:

ـ وكيف هو؟

ـ بخير يا حاجة.

ـ وزوجته؟

ـ تقصدين أمي؟ حسنًا، أمي بخير وبتسلم عليكِ.

قلتُها وضحكتُ، لكنها لم تبادلني الضحك، فأردفْتُ:

ـ منذ متى تعرفين أبي وأمي؟

ـ أعرف أباكِ منذ أن كان عيل بشخة، وأعرف أمك منذ أن خطفت أباكِ.

ـ خطفته؟ ماذا تقصدين بـ«خطفته»؟

كانت المحادثة تزداد غرابة، والعجوز كذلك، لكن هذا لم يتعارض مع إثارتها اهتمامي وفضولي..

ـ أنتِ لا تعرفين الحكاية إذًا!

ـ أي حكاية؟!

ـ ما حدث بعد الحريق.

- أي حريق يا حاجة؟

- يبدو أنك لا تعرفين أي شيء على الإطلاق.. ما رأيك أن أدعوك إلى كوب شاي وأقص عليكِ قصة أهلك، الذين يبدو أنك لا تعرفين عنهم شيئًا.

بالطبع لم أتباطأ في قبول الدعوة.. أهلي الذين لا أعرف عنهم شيئًا، كان هذا كفيلًا بجعلي أتناسى كل ما أتيت لأجله، والموافقة على مجالسة تلك العجوز الغريب. في الغالب هي خرفة، لكن الأمر يظل مثيرًا للفضول.

فتحت الباب على شقة تشبهها لدرجة مضحكة، متهالكة ومهلهلة ومتربة، وكأنها بيت للأشباح. يبدو أنها لا تستقبل أحدًا على الإطلاق، ربما كان هذا سببًا كافيًا لاصطيادي من وسط الشارع، وإخباري ببعض الأكاذيب كي أبقى وقتًا أطول. تخطينا غرفة استقبال شبه خالية إلا من التراب وبعض المقاعد المكسرة، وغرفة نوم لا تصلح للاستخدام البشري، ثم دلفنا إلى الشرفة التي رأيتُها فيها لأول مرة. تركتني وحدي لبضع دقائق، ثم عادت مع كوبٍ من الشاي. يبدو جليًا أنها تفتقد الحديث مع الناس بشدة في هذا الجحر المهمل.

- من أين أبدأ الحكاية يا...؟ ما اسمك يا ابنة «سليم»؟

- «لبنى»، اسمي «لبنى».

- آه «لبنى» نسيت، ألم يطلبوا منك أن تأخذي مني مفتاح شقتكم؟

- أي شقة يا حاجة؟

ـ شقة أبيك وجدك وجد جدك، المفتاح معي، وبصراحة لطالما أردت التخلُّص منه؛ فالشقة مسكونة كما يعرف الجميع.

ـ مسكونة بماذا؟

ـ بماذا؟ بالعفاريت يا ضناي، شقة محروقة كان بها اثنان من القتلى المتفحمين، وواحد مجنون، ولم يدخلها إنسي منذ أكثر من أربعين عامًا، ماذا تنتظرين منها سوى أن يسكنها العفاريت؟!

اثنان من القتلى وواحد مجنون؟ عمَّ تتحدث تلك المرأة؟

ـ هل يمكنكِ أن تحكي لي حكاية القتلى والمجنون والشقة المحروقة؛ لأني فعلًا لا أفهم أيًا مما تقولين؟

ـ كم ملعقة من السكر؟

ـ دون سكر.

ناولتني الكوب وأردفت:

ـ بعد أن ألقى أبوكِ بنفسه من نافذة غرفته، وتكسرت عظامه لألف قطعة، أغلقت «أمل» و«جمال» الشقة على ثلاثتهم لحوالي عام. لم يعرف أحدٌ عنهم شيئًا. كثرت الأقاويل عمَّا يدور بالداخل، فليس من الطبيعي أن يحبس الناس أنفسهم في شقة لعام كامل.

هل ألقى أبي بنفسه من النافذة؟ يا إلهي! كيف؟ كنت سأسألها عن تفاصيل أكثر إلا أنني فضَّلت الاستماع لبقية الحكاية كما تتذكرها هي تمامًا..

ـ لحظة.. مَن «جمال»؟

- زوج جدتك وعم أبيكِ.

كان هذا كمًّا كبيرًا من المعلومات الجديدة التي لم أسمع بها طول حياتي. هل تزوجت جدتي من شقيق زوجها؟ لماذا؟

- وبعد تلك العزلة الطويلة، عرفنا أن «سليم» هرب من المنزل، وعرفنا كذلك أنه فقد عقله تمامًا، وأن حالته خطرة. قاموا بتبليغ الشرطة حينها، وأذكر أنهم حققوا مع كل سكان العمارة، بمن فيهم أنا وزوجي، لكن لم يمر وقت طويل حتى وجدوه. كانت حالته سيئة جدًّا. قالوا إن الأطباء أوصوا بإيداعه مستشفى العباسية، لكن «جمال» رفض، وأصر على حبسه بالمنزل. أغلق النوافذ بالقضبان المعدنية، وثبَّت «سليم» في السرير بسلاسل حديدية. رأيته بتلك الحالة مرة واحدة وقت الحادث.

- أي حادث؟! الحريق؟

- أجل، كانت الشقة مغلقة بالحديد وبعدد كبير من الأقفال؛ لذلك لم يتمكَّن السكان أو المطافئ من دخولها في الوقت المناسب لإنقاذهم، وعندما تمكنَّا من دخول الشقة، وجدنا جثتي «أمل» و«جمال» محترقتين تمامًا، أما أبوكِ فلم ينقذه سوى باب غرفته المغلق بإحكام. كان مكبلًا بالسلاسل في السرير، مذعورًا، غارقًا في بوله، ويوشك على الاختناق من الدخان المتسرب من شقوق الباب، فقد كانت النافذة مغلقة بالقضبان والألواح الخشبية.

- أكملي..

- فككناه وأخرجناه من الشقة. ظل معي هنا في شقتي عدة أيام، إلى أن فقدنا السيطرة على الحالة التي كانت تنتابه، كان - اللهم احفظنا -

ملبوسًا، ويرى أشياء لا نراها.. عفاريت، اللهم احفظنا. وعندها قرر جميع سكان العمارة الذهاب به إلى مستشفى العباسية، كنت أسأل عنه باستمرار، وأزوره أنا وزوجي المرحوم، إلى أن بدأت الحية تحوم حوله.

ـ أي حية؟

ـ أقول لك ولا تزعليش؟

ـ قولي يا حاجة مش هزعل.

ـ الحية أمك.. كانت دكتورة متدربة في المستشفى، وكانت تكبره بعدة أعوام. قالت إنها أحبته وقررت الزواج به، لكن جميعنا يعلم أنها لم تفكر سوى في الأموال الطائلة التي سيرثها؛ إذ كيف تحب دكتورة متعلمة شابًا يصغرها في السن، وعقله بعافية وملبوسًا بالعفاريت؟ وبالفعل تزوجته ثم صارت الوصية على كل ممتلكاته التي قُدرت وقتها بالملايين.

ماذا يمكن أن أقول؟ هل أدافع عنها؟ هاجمني ذلك السؤال اللعين الذي لطالما راودني منذ طفولتي.. كيف تزوجت امرأة بتلك الشخصية والجمال وهذه التطلعات غير المحدودة رجلًا مثل أبي؟ ولماذا أنجبتني بعد عشرين عامًا من زواجها وهي غير راغبة بأي شكل من الأشكال أن تكون أمًّا لي؟! هل يمكن أن تكون الإجابة بتلك القسوة؟

وجدت عقلي فارغا تمامًا إلا من رغبة وحيدة:

ـ هل يمكنكِ أن تعطيني مفتاح الشقة؟

ـ أكيد، كنت سأعطيكِ إياه حتى إن لم تطلبيه، لطالما شعرت أنه يجلب لي النحس.

سلمتني المفتاح بيد، وبيدها الأخرى أمسكت ذراعي وأكملت حديثًا تمنيت لو ينتهي بأقصى سرعة ممكنة:

- هل أخبرتُكِ عن الرجل الذي يحضر الرسائل؟

- أي رجل؟ لا، لم تخبريني.

- أخبرني باسمه أكثر من مرة، لكني صراحة نسيته، السن لم تعد تسعفني كما ترين. منذ سنوات طويلة لم يقطع زياراته الخاطفة كل عدة أشهر، يأتي ويسأل عن «سليم»، ثم يسلِّمني رسالة مقفولة ويرحل، رسالة في ظرف أبيض من دون عنوان أو طابع بريد.

- وأين تلك الرسائل؟

- ....

- أين الرسائل يا حاجة؟ هل نسيتِ أيضًا أين وضعتِها؟

- بصراحة، كنت أحتفظ بها في كيس في غرفة الخزين هناك.. تلك الموجودة في آخر الشقة.. أترينها؟ لكن العيال أولاد الكلب، أحفادي، لملموا الأوراق كلها في الغرفة، وصنعوا منها طائرات ورقية، ليلقوا بها من على «كوبري عباس» في العيد.. حتى إنهم طيَّروا عقد زواجي من المرحوم زوجي ربنا يجازيهم.

- كل الرسائل؟

- كل الورق الموجود في البيت وحياتك.

لم أفكر بعدها حينما اتصلت بالشاري المفترض أن ألتقيه الآن، فقط وجدت نفسي ألغي الموعد، وأختلق عذرًا واهيًا عن حادث طريق أو

شيء من هذا القبيل، لا أذكر. أخذت المفتاح من المرأة التي لا أريد أن ألقيها مجددًا طول حياتي، وصعدت إلى الشقة التي أخبرتني هي من مكانها.

وقفت أمام الباب كالمخدَّرة، هل أفتح؟ هل يمكن أن تكون الشقة مسكونة بالفعل؟ بالطبع لا، هذا هراء عجوز خرفة، حسنًا، لم لا؟

فتحتُ الباب بصعوبة شديدة.. بالتأكيد القفل أصابه الصدأ والتلف من أثر تلك السنوات كلها، لكنه في النهاية أطاعني وانفتح، وبحركة آلية بحثتُ عن قابس النور، ثم تذكرت أن الأضواء بلا شك تالفة، فأضأت بطارية هاتفي المحمول، ودلفت إلى الشقة. لم أجرؤ على إغلاق الباب، على الرغم من عدم إيماني بكل تلك المخاوف البلهاء التي تحيط بالمكان. تحججتُ بضرورة تهوية الشقة حتى لا أصاب بالاختناق، وبالفعل كان المكان خانقًا لأقصى درجة، أكثر من مقبرة فرعونية قديمة.

كل شيء حولي متشح بالسواد، الشقة متفحمة بالفعل. كيف يمكن لمأساة كهذه أن تخفي نفسها عني تلك السنوات كلها؟ كيف تمكنوا من تغفيلي لتلك الدرجة عن حقيقة أن جدتي وزوجها ماتا محترقين، وأن أبي كان مجنونًا لدرجة تكبيله في السرير بالسلاسل؟ الجدران السوداء وبقايا الأثاث المتفحم تتماهى مع الظلام لتصنع حولي عدمًا مجهولًا ومقبضًا. عمَّ أبحث في هذا العدم؟ لا أعرف، ربما عمَّا لم تتمكَّن النار من الفتك به. كانت الشقة كبيرة جدًّا، جدرانها عالية وسقفها يبتعد عن الأرض بأكثر من خمسة أمتار، أربع غرف أو أكثر، لا شيء بها بحالة مفهومة سوى غرفة واحدة، على بابها الكثير من الأقفال الصدئة.. بالتأكيد غرفته.

الضوء شحيح جدًّا، ولا يقدر على مواجهة هذا الظلام كله، لكنني واصلتُ التقدُّم ودلفت إلى الغرفة، غرفة أبي، أو محبسه القديم. رأيت خزانة ملابس مكسرة بها كثير من الملابس الرثة، وطاولة صغيرة وسرير محفوف بالسلاسل الحديدية الثقيلة، والنافذة.. مغلقة بالقضبان والألواح الخشبية. تذكرتُ فجأة غرفته التي يعيش بها الآن وتساءلت: ما الفرق؟!

من جديدٍ، سألت نفسي عمَّ أبحث، وعلى الرغم من عدم وجود إجابة واصلت البحث، لكن الغرفة عارية تمامًا إلا من بقايا مأساة رهيبة، وعذاب لا يحتمله بشر. مسكين.. فكرتُ. مددتُ يدي في خزانة الملابس، فهيجت الكثير من الأتربة والرماد. انتشيت لفكرة أني ألمس شيئًا لم يمسسه بشر من عشرات السنين. يقال إن الأماكن المهجورة تجتذب كيانات فوق بشرية لتسكنها، في الثقافة الشعبية يطلقون عليها الجان، وفي الثقافات الأخرى لها الكثير من الأسماء.

تُرى هل ألمس الآن كفًّا غير مرئي لجسم أثيري ما؟

اقشعر جسدي وغمرتني دهشة كبيرة. يا إلهي! كم أنا متبلدة المشاعر! لماذا لا أفزع وأركض هاربة من هذا كله؟ بالتأكيد بسبب العقاقير النفسية.

كان السرير خاليًا والطاولة كذلك. خزانة الملابس لا تحتوي على أي شيء لافت للنظر، لكن فوقها لمحت صندوقين كبيرين، ليسا بعيدين عن ذراعيَّ الطويلتين. مددت يدي وحرَّكتُ صندوقًا منهما فسقط، ثم حرَّكتُ الثاني فسقط كذلك، وتناثرت منهما الكثير من الأشياء.. أوراق.. أجل كانت أوراقًا. انحنيت ووجهت الهاتف باتجاهها فتكشَّفت أمامي رسوم كثيرة، متقنة وبشعة. أجساد عارية بعيون مفتوحة بلا حياة، تنبثق

منها أجساد أخرى كاملة ونصفية، وتسيل منها أشياء سوداء صغيرة، وفي الخلفية جسد شديد الضخامة ملوَّن بالكامل باللون الأسود. التيمة نفسها تتكرر في الرسوم كلها مع اختلاف الملامح والقياسات. كلها مرسومة بالفحم والرصاص على أوراق صفراء توشك أن تتفتت من فرط قدمها. أثارني الأمر بشدة. ترى من رسم هذا كله؟ لا أظن أن جدتي أو جدي فعلاها، غير أنها مخبَّأة في غرفة أبي. هل يُعقل أن يكون هو مَن رسمها؟ وضعت الهاتف أرضًا ورحتُ أجمع الأوراق وأدسها في أحد الصندوقين، ثم حملته وتلمست طريقي وسط العدم ذاته، إلى أن خرجت من الشقة. خرجت من عالم إلى عالم آخر، من زمن إلى زمن، ومن مأساة إلى مأساة..

وضعت الصندوق في السيارة وغادرت الجمالية بلا أي نية للرجعة. فلتذهب الصفقة إلى الجحيم، لن أعود إلى هنا مهما كلفني الأمر، أما الرسوم.. فلها معي شأن آخر.

* * *

(١٦)

المجنون

لم تكُن الأصوات في عقلي آتيةً من الماضي فقط. كانت هناك أصوات أخرى آتية من المستقبل؛ فالزمن وهم كبير، ولحظة الآن سجن تأسرنا بداخله عقولنا محدودة القدرة، وأنا بعد أن تحرر عقلي من محدوديته، تحرر كذلك من آنيته، وصار جهازَ استقبالٍ حساسًا للماضي والمستقبل، تمامًا كما تستقبل عقول الآخرين اللحظة الراهنة.

ولهذا سأخبرك عن الفتاة الميتة، التي أتاني صوتها من المستقبل البعيد، البعيد جدًّا. كان صوتها يقصُّ عليَّ حكايتها ليلة بعد ليلة، واضحًا بغير لبس، عندما كانت تخبرني عن صباحاتها، تلك الصدمات المتكررة كل أربع وعشرين ساعة. تفتح عينيها ببطء فتأبيان أن تنفتحا. مقلتاها ملتصقتان ببعضهما بفعل الصديد الذي يفرزه جلدها ليلًا. تمسك طرف الملاءة وتفرك عينيها فيزول الصديد، ويتساقط من جفنيها بعض ممَّا

تبقى منه فتنفتحان أخيرًا، وتظل محدقة في سقف الغرفة الرمادي.

عليها أن تنهض الآن، حقيقة مؤلمة يجب التأقلم معها والانصياع لها، لكن النهوض مؤلم. أحيانًا تفكر في أنه أصعب الأمور على الإطلاق، أن تغادر الظلام الساكن الجميل إلى معركة الحياة التي يتم قتلها فيها كل يوم، فتدفن نفسها في فراشها في المساء، ثم تُبعث من جديد في صباح اليوم التالي لتواجه قتلة أخرى.

تحاول أن تتحرَّك في الفراش بصعوبة، فتجد أنها ملتصقة به. جلدها المتحلل والسوائل المنتنة التي تنز منه تبلل الفراش، ثم يكوِّنان معًا قشرة صلبة تثبتها فيه كالمسامير، لكن القيام من الفراش في الصباح حتمي للأسف ولا مفر منه بأي طريقة ممكنة. تقوم بانتزاع جسدها انتزاعًا، لينخلع بعض من جلد ظهرها، ويتساقط قطعًا على الملاءة المُدَمَّاة. يشلها الألم للحظة، لكنها تواصل النهوض، حتى تتمكَّن أخيرًا من الوقوف بجوار السرير، متأملة بعضها الذي تركته هناك إلى الأبد، متماهية مع هذا الألم الجارف الذي لن ينمحي أبدًا، بل سيضاف إليه ألم جديد كل صباح.

هي ميتة.. لقد ماتت مرةً من قبل، لا تذكر متى، ولا تذكر ما كان شكل حياتها عندما كانت حية. ما تذكره فقط هو حياة الموت التي تعيشها منذ أن بُعثت من قبرها في يومٍ ما بعد الحرب العالمية الأخيرة. راحت تجول في الطرقات لا تعلم لها وجهة أو بيتًا. كلهم قاموا معًا، قالوا إنه مرضٌ أو تلوُّث إشعاعي أو شيء من هذا القبيل، لا يهم.. المهم أنها عادت بلا روح، وهم كذلك. والآن صار لها بيت وأسرة. يعيشون معًا، يتحركون ببطء معًا. يأكلون الحيوانات النيئة المجمدة

معًا، وينتظرون معًا شيئًا ما لا يعرفون ما هو.

في كل صباح تلتقط من فوق وجهها كتلًا صغيرة من اللحم المتعفن، تلقيها في صندوق القمامة، ثم تصنع خلطتها الخاصة المكونة من مساحيق التجميل ومسحوق السيراميك. ترمم بها الفراغات في وجهها وعنقها وكفيها، ثم تكمل تبرُّجها الصارخ. تصب على جسدها العطر صبًّا، حتى تختفي وراء رائحتِه رائحةُ تفسخها، وترتدي ملابس ذات ألوان فاقعة، وكثيرًا من الحلي، ثم تعتلي لوح التزلُّج الكهربائي خاصتها وتذهب إلى عملها في المتجر الكبير بوسط المدينة. هي أجمل «زومبي» في المدينة، أو هكذا يعتقدون، ربما لأنها لا تُظهر وجهها الحقيقي أبدًا. أمر تحسدها عليه النساء ويرغب فيها لأجله الرجال. ربما تذكِّرهم بشيء من عالم قديم لم يعُد له أثر حتى في عقولهم، الأحياء ربما، أو الروح!

لم تكُن تعرف ماهيتها، وعلى الرغم من ذلك تفتقدها، وتحسد عليها مالكيها، تلك القلة القليلة من المجانين القابعين خلف أسوار القلعة الحصين، التي يحيطها ويحرسها الحرس المعدني، الروبوتات. هم أيضًا بلا روح؛ فكلهم في الموت سواء. لماذا إذًا تشعر بتلك الغصة وحدها؟ ربما لأن حظها العاثر ورَّطها مع هذا الجهاز اللعين الذي قرأت عليه آلاف الكتب، واستمعت إلى آلاف المقطوعات الموسيقية، وشاهدت المئات من الأفلام القديمة للأحياء. ربما تلبَّستها تلك الأرواح كلها، فجعلتها تدرك فداحة ما هي فيه من خواء. ربما تنظر أرواحهم من خلال عينيها إلى المرآة، فتفزع لما ترى؛ لأن الصورة المنطبعة فوقها لا تشبههم في شيء، بل تشبهها للأسف.

في يومٍ ما، بدا وكأنه كأيِّ يوم آخر، استيقظت من رقادها، لتخرج

من موتة صغرى مؤقتة، إلى موتتها الكبرى الدائمة.. تسبح في فراغها بلا أمل للوصول إلى أي مكان. قامت بكل طقوسها الصباحية. تناولت بعض اللحم النيء المجمد، وكوبًا كبيرًا من القهوة المركزة. القهوة مشروب قوي، يخادع جسدها الفارغ ويمنحه بعض دقائق من يقظة الأحياء. مرت بأمها في زاوية المنزل أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة تراها تجلس على الكرسي ذاته، وتقلب قدح قهوتها ببطء لا يُطاق. أنهت كلَّ ما تفعله وهمَّت بالخروج. ألقت عليها نظرة أخيرة، فإذا بها ما زالت تقلب قدح القهوة وتطرق إلى اللاشيء بعينين بيضاوين. آه، نسيت أن أذكر أنها تضع عدسات لاصقة معتمة، حتى ترسم على وجهها طيفًا من ملامح البشر.

سلكت الطريق ذاته إلى مقرِّ عملها بالمركز التجاري، وأنهت يومَ عملٍ بطيئًا ومملًّا كالعادة. الأموات حولها في كل مكان يتبضَّعون. هم يهوون جمع البضائع حتى التي لا يحتاجون إليها فعليًّا. داء غريب لم تفهم له سببًا، سوى أن امتلاكهم الكثير من الأشياء ربما يعوِّضهم عن فقدهم الأبدي لأرواحهم. وهي، حاولت التخلُّص من هذا الداء، تكفيها كل العلل الأخرى التي تمتلئ بها وتفيض على عالمها كله وتغرقه. هي وعاء من العلل، حسبها فقط أن أمراضها لا تعدي الآخرين ولا تؤذيهم، أو هكذا كانت تأمل.

أنهت دوامها وارتقت لوح التزلج الكهربائي. شقت طريقها نحو جزيرتها النائية السرية، الشقة القديمة التي عثرت فيها مصادفةً على جهاز الحاسوب القديم، بعد أن تسلَّلَتْ لها خلسةً يومًا ما. هذا الملعون الذي نقل لها عدوى الحياة من آلاف البشر الأموات، فتركها عالقة

بين عالمين، بل في مفترق الطرق بين آلاف العوالم. كم كانت تكرهه، وكم كانت تحبه، وكم تحتاج إليه أكثر من أي شيء آخر، لكنها أيقنت أنها في حالتها البينية تلك، يصبح البقاء أمرًا منافيًا لمنطق العالم الذي تعيش فيه. لا شيء يبقى. كلٌّ يؤول إلى موت أو شبه موت أو فناء، ولهذا وجدت ما لم تخشَه يوما؛ لأنها لم تتوقعه أبدًا.

الشقة يتم إخلاؤها.. صارت فارغة من كل شيء مثلها تمامًا..

- تُرى، هل أصابتها عدوى الخواء منها من طول ما جمعتهما معًا خلوة واحدة؟!

تساءلت.

سألت العمال المعدنيين عن محتويات الشقة، لكنهم كعادتهم يحتقرون كل ما يتفوَّه به الأموات وكل ما يفعلونه. لم تلقَ جوابًا من أيٍّ منهم، إلا أنها أبصرت سيارة نقل ضخمة ومغلقة تبتعد من أمام البناية وتختفي في الأفق. ترى هل تدري تلك الحمقاء أنها تحمل في بطنها عالمًا مكتملًا، يصرخ ويستغيث حتى ينقذه وعي ما من الفناء، وعي يدركه ويحتفظ به في رحمه لينمو ويولد من جديد؟ بالطبع لا تعلم، وهم أيضًا لا يعلمون. وحدها كانت تعلم فداحة تلك الكارثة. شعرت أنها ستموت، ثم ضحكت حتى كاد يتساقط من وجهها اللحم والعجين، فهي أصلًا ميتة!

ماذا ستفعل الآن؟ تساءلت السؤال ذاته طول الطريق وطول الليل وطول صباح اليوم التالي. مرت على أمها وهي جالسة إلى مائدة المطبخ تقلب القهوة، ويتساقط من عنقها الجلد بجوار القدح. هل تسألها؟ لا، لن تفعل، لن تسأل أحدًا.. فلن يفهم أحد. ستفعل شيئًا ما، عليها أن

تفعل شيئًا ما. جمعت كل ما تملك من نقود، وعقدت العزم على الذهاب إلى هناك بعد انتهاء الدوام، إلى مركز إعادة برمجة الروبوتات. كانت تعلم جيدًا أنهم لن يرحبوا بها، وأنهم سيحتقرونها، وفي الغالب سيطردونها، لكن هذا كله لا يهم أمام الاحتمال الضئيل، الذي ربما يُمكّنها من شراء أي جهاز كمبيوتر، وشحن ذاكرته بالكتب والموسيقى. احتمال بعيد، بعيد جدًّا، لكنه لا يزال موجودًا.

وقفت أمام المبنى الضخم ذي الجدران العملاقة الخالية من أي فتحات. رمقها الكثير منهم باحتقار، لكن لم يمنعها أحدٌ من الدخول. عبرت المئات من النظرات المستنكرة والمشمئزة، والعشرات من الأروقة. سألت البعض عن وجهتها فلم يُجِبْها أحد، فاكتفت باللافتات الإرشادية، التي مدت لها يد عون وحيدة بين مئات الأيادي المعدنية الضنينة.

وصلت في النهاية إلى قاعة كبيرة، بها العشرات من الكراسي الجلدية، والعشرات من الأجساد المعدنية، منهم بضعة موظفين مسؤولين عن تلقي طلبات إعادة البرمجة. دلفت إلى القاعة وحاولت صياغة طلبها بأكثر صياغة يمكن ألا تثير السخرية، ثم وقفت كالمتسولين تنتظر ردًّا.

صورة وجهها تنعكس على المرآة خلف موظف الاستقبال. «زومبي» متآكلة كريهة، ليس هذا ما تراه بعينيها، إنما بعقلها الذي يحفظ شكلها الأصلي عن ظهر قلب. يعرف أن لونها ليس لونها، وشكلها ليس شكلها. يعرف أن ابتسامتها المثبتة على وجهها هي إعادة رسم دقيقة لحواف فمها، مع بعض الظلال المرسومة بعناية حوله. يعرف أنها لا تملك ابتسامة أصلية؛ لأن وجهها الحقيقي متآكل وفمها متهتك كقطعة لحم في فم كلب، لكنها لا تلبث أن تخبر نفسها بأن هذا لا يهم، وأن ما يهم

حقًّا هو ما يراه الناس، وعلى الرغم من مظهرها المصطنع الجميل، فإن الروبوتات اللعينة لا يتخلون للحظة عن تعاليهم الممقوت، واحتقارهم الظاهر لها ولبني جنسها. استجمعت كل ما تملك من شجاعة، وكل ما تدعي امتلاكه من ثقة، وأخبرت الموظف باقتضاب عن رغبتها في شراء حاسوب محمول عليه مكتبات من الكتب والأفلام والموسيقى. أنصت لها باهتمام حذر، ثم أخبرها أن ما تطلبه ليس من ضمن اختصاصاته، وإن كانت مصممة، فيمكنها الانتظار حتى انتهاء كل الموجودين من تلقّي الخدمة، ثم الدخول شخصيًّا للمسؤول عن البرمجة، وإخباره بالقصة، وإن كان من غير المرجَّح أن يقدر على المساعدة، أو أن يهتم بالأمر من الأساس. لم تكُن إجابة مبشرة، لكنها تحمل بين طيات الوقاحة ومضة أمل صغيرة يمكن أن تسفر عن نتيجة ما. تقدمت ببطء نحو أحد المقاعد الخالية، ببطء شديد في الواقع، فجسدها المتحلل لا يقوى على الحراك بسرعة من دون اللوح الكهربائي. جلست على المقعد الخالي والتفتت لليسار فأبصرته للمرة الأولى!

لم يكُن شكله يختلف كثيرًا عن بقية الروبوتات؛ فالفروق بينهم طفيفة إلى أقصى حد، على عكسهم هم؛ حيث تختلف أشكال وجوههم ودرجة تحللها اختلافًا شديدًا، يمنح كلًّا منهم تفردًا غير محبب. والتفرُّد صفة لا ينبغي أن تندرج ضمن مواصفات الروبوت؛ فالتساوي والتماثل هما سر السعادة التي توصلوا إليها بعد أن تسببت الفرادة والتميُّز في تدمير العالم؛ حيث أصاب بعض من تبقى من البشر بالجنون، وتحول البعض الآخر إلى ميت حي لا روح له، أما الروبوتات فقد عمموا برمجة السواء والمنطق، فلم يعد هناك مجال للشذوذ كما كان لسكان الكوكب

السابقين، إلا إذا تصادف سوء الحظ مع خطأ في البرمجة. خطأ صغير متناهي الصغر، يُزرع في عقل الروبوت القادر على التعلم والتطور والتكوين علاقات أولية وعلاقات ثانوية إلى مالا نهاية. بذرة صغيرة يمكن أن تخلق غابة كاملة من الجنون. بالتأكيد هو أمر نادر الحدوث، يحصل في الخفاء وينتهي في الخفاء في أحد مراكز إعادة البرمجة؛ حيث يقرر الروبوت المعطوب أو يقرر له أن تعاد برمجته، أو يعاد تصنيعه، كلٌ على حسب حالة عقله الإلكتروني وحالة هيكله المعدني.

في تلك اللحظة التي يدخل فيها إلى غرفة العمليات، تلك اللحظة التي تسبق مباشرةً إطفاء تشغيله، لا يكون الروبوت على علم بمصيره. ما الذي سيتغير به عندما يستيقظ؟ هل سيكون مدركًا لهذا التغيير أم لا؟ هل سيقتصر الأمر على بعض التعديلات، أم سيكون إعادة كاملة للبرمجة، حيث يُعَدُّ لأداء دور جديد بالكلية في حياته وعالمه، أم أن هيكله المعدني سوف يقيَّم بأنه غير صالح، فيتم صهره وإعادة تصنيعه ليفنى ولا يعود له أثر. يتلاشى وعيه تمامًا وكأنه لم يوجد من الأساس؟!

كان وجهه لا يختلف عن وجوههم في شيء، إلا أن إطراقه كان شديد الاختلاف عن نظراتهم اليقظة التي تدور بلا كلل في أركان المكان. تدقق في الوجوه وتسجل التفاصيل، وتقارن بين هذا وذاك.. أما هو، فيجلس هناك بلا حراك ولا اهتمام. أول ما فكرت فيه أنه روبوت معطوب ستُعاد برمجته خلال الساعة المقبلة، ليتحوَّل إلى جهاز جديد صالح للاستعمال، ولم يخطر ببالها لحظة واحدة أنه يملك ذلك العطب المألوف.. المرهق.. الجميل!

بادرته بالحديث، كالهامس في أذن شخص يحتضر، يخبره الحقيقة

بلا خجل، فلن يمر وقت طويل قبل أن يرحل عن هذا العالم محملًا بكل ما عرف، في رحلة طويلة نحو العدم. أخبرته عن وجهها الحقيقي الذي تكرهه، وعن أسرتها وعشيرتها المتحللة. أخبرته عن غرفتها السرية التي كانت تحمل بداخلها عالمًا كاملًا لم يعُد موجودًا الآن. أخبرته عن مطاردتها البائسة لهذا العالم في أكثر مكان لا ترغب في الوجود فيه، ثم أخبرته عن سبب حديثها معه، وعن شكله المختلف عن أشكالهم، وعن مصيره المجهول الذي لا يعرفه سوى ذلك المبرمج المختفي هناك خلف الباب الكبير. وهنا.. أدار رأسه ببطء تجاهها. أمعن النظر في عينيها حتى أوشكت على الاعتقاد أن وصلاته الكهربائية قد أصابها التلف، ثم همس بصوته المعدني المرتعش وهو يشير بإصبعه إلى رأسه:

- أنا أملك عالمًا مماثلًا هنا!

* * *

(١٧)

«لبنى»

هل أدخل شقة «ميرنا» لأسترضيها وأستأذنها في بقاء الرجل ليوم إضافي، أم أدخل شقتنا وأحاول الوصول إلى أبي والتحدث معه؟ وقفتُ بين الشقتين حائرة لدقيقة أو أكثر، ثم قررتُ دخول المكان الأكثر وحشة.. بيتنا.

المسافة بين باب الشقة وغرفة أبي في نهاية الرواق يمكن أن تقدَّر بخمسة عشر مترًا، وعلى الرغم من ذلك كان عبورها شاقًّا كعبور الصحراء الكبرى بقدمين حافيتين. أربعة وعشرون عامًا هي عمري الذي حاولت فيه الوصول إلى نهاية هذا الطريق اللانهائي إليه. كلما مشيت تجاه الباب الفاصل بيننا ازداد الباب ابتعادًا. كلما ركضت نحوه، تمددت المسافة وتضاعفت. كنت أطارده بجوع، ويهرب مني بإصرار.. لماذا؟

أنا مصنوعة من ضباب، وعالمي كله من حولي كذلك، وأبي أيضًا.

ترى هل كان سيختلف الأمر شيئًا لو أنه رآني؟ هل كنت سأتمكن حينها من إدراك أني حقيقية؟ ترى.. هل تلاشيت من هذا العالم لأنه لم يبصرني حينما كنت جزءًا منه؟!

طرقتُ الباب الذي لا أطرقه أبدًا، وانتظرت ردًّا لم أتلقَّهُ أبدًا، وكما هو متوقَّع، كان الصمت هو الرد الوحيد. حاولت فتح الباب وتعجبتُ كثيرًا من كونه غير موصد بالمفتاح. دلفت إلى الغرفة دون أن أنتظر أن يأذن لي. كان يجلس على مقعده الجلدي في ركن الغرفة، بجواره طاولة فارغة تمامًا، ونافذة مغلقة. لو أن جسده انتُزع من الغرفة لحسبتها مهجورة، لا تفاصيل، ولا أثر للحياة. أما وهو موجود... فلا أثر للحياة كذلك.

- أبي.

- من؟

ضحكتُ دون صوت، أو بكيتُ دون صوت، لا أذكر تمامًا. هو لم ينجب سواي، من غيري يمكن أن يناديه بأبي؟

- ومن سأكون؟! أنا «لبنى».

لم ينظر تجاهي. كان يضع نظارته السوداء، فلم أتبيَّن تعبيرات وجهه بوضوح. نظارته التي حجبت عني عينيه طول حياتي. إلى الآن أتساءل: ترى ما لون عينيه؟ ما شكل نظرته؟ أهي حنون أم قاسية؟ هل تبتسم عيناه عندما يبتسم فمه، أم أنه ممن يبتسمون بنصف وجه ونصف قلب ونصف روح؟ هل هو ممن يطيلون النظر في عينيك حتى تلين لهم فتدمع ثم تبكي، وتكشف أمامهم عن هذا الجزء العاري من روحك بلا خجل، أم أنه من أصحاب النظرات الزئبقية التي تحاول مطاردتها

تهرب منك، وتحاول لمسها فتخمش قلبك؟

أذكر أن أمي أخبرتني في طفولتي أنه أعمى، وأذكر كذلك أني رأيته بضع مرات يسير بثقة المبصرين ويلتقط الأشياء من أماكنها ليعود بها إلى غرفته، كما أذكر الوقت الذي توقف فيه الأمر عن إثارة فضولي فكففت عن السؤال والمراقبة والاهتمام. والآن.. ها أنا أقف أمامه مباشرة، يفصل بيننا متر واحد، وضباب العالم كله، وألف كلمة لم تُقَل وحكاية لم تُحكَ. ترى بكم يمكن أن تقدَّر المسافة بيننا؟

- أبي.. أحتاج إلى أن أسألك عن كثيرٍ من الأمور، هل تسمح لي؟

لم يرد كما توقعت، فأردفت:

- لقد ذهبتُ اليوم إلى بيتكم القديم في الجمالية. تحدثتُ مع المرأة العجوز التي تسكن في الطابق السفلي، وأخبرتني الكثير ممَّا لا أعرفه عن عائلتنا، ثم أعطتني مفتاح شقتكم القديمة.. المحترقة...

توقفتُ عن الكلام برهة. أردت أن أتبيَّن رد فعله، فلاحظت فيضًا غزيرًا من الدموع ينهمر من تحت النظارة، ورعشة واضحة في يده التي يتأكد بها من ثباتها فوق وجهه.

- أبي.

حتى الكلمة تبدو غريبة عندما أسمعها بصوتي. أظن أنني أستطيع عد المرات التي قلتها فيها قبلًا. فيها حلاوةٌ ما.. ووجع.

- هل أنتَ بخير؟

لم يُجِبني، فقط ازداد اضطرابًا. يتلفَّت حوله ويمسح على وجهه

ورأسه وكأنه يحمي نفسه من شيء ما.. وكأن هذا الشيء مخيف، مخيف كرسومه، ربما. وضعت الصندوق أرضًا وأخرجت منه رزمة من أوراقه القديمة، وضعتها أمام وجهه مباشرة فانتفض من على الكرسي والتصق بالحائط وراح يئنُّ كقطٍّ مذعور. أزحت الورقة وعرضت التالية لها ثم التالية، إلى أن وجدته يلتصق بالنافذة المغلقة ويخبط عليها بكل قوته. شعرت بالذعر والشفقة.

ـ هل ما أفعله صحيح؟

تساءلتُ.

ـ أبي.. أنا آسفة، لم أقصد إخافتك.. أردت فقط أن أفهم.

وضعت يدي على كتفه وحاولت الاقتراب لعلَّه يهدأ، لكن لمستي كانت كلدغة عقرب جعلته ينتفض من جديد. تحوَّل أنينُه إلى صراخ. أمسك جانبَي رأسه بعنف واستدار وهو يصرخ بكل ما أوتي من فزع. كانت المسافة بين وجهينا أقصر من أي يوم مضى في حياتي، وكانت المرة الأولى أيضًا التي أتمكَّن فيها من رؤيته بهذا الوضوح؛ فالنظارة سقطت أرضًا وتهشَّمت تحت قدميه، أما عيناه.. فكانتا بيضاوين تمامًا..

لقد كان أعمى فعلًا!

لكنه رأى... كيف؟!

ألقيت أوراقي أرضًا وركضت مبتعدة عن هذا الكابوس. عبرت الطريق اللانهائي ذاته. لم يكُن بالوعورة السابقة نفسها، بل أشد أضعافًا مضاعفة، إلى أن وصلت إلى غرفتي بشقة «ميرنا». أغلقت الباب بالمفتاح وهرولت تجاه المجذوب المتكوِّر في الركن ذاته متشبثا بدفترين آخرين

من دفاتري. تجاهلت رائحة البول النفاذة القادمة من ركن ما بالغرفة وحدّقت فيه هو. نظر لي النظرة الثابتة نفسها. كانت عيناه كالمرآة، انعكسان فزعي وتبديانه في نظرته هو. جلست أرضًا بجواره، وألقيت رأسي على كتفه، ورحت أحكي له كل شيء، لا أعرف إن كان قد فهم شيئًا ممّا قلته أم لا، لكنه كان يربت على كف يدي.. ويبكي.

* * *

(١٨)

المجنون

إنها تلك اللحظة البديعة التي تكتشف فيها أن القبر الذي تسكنه يحمل جثة شخص آخر، أنك لست وحيدًا تمامًا في حفرة. تتقاسم معه وحدتك وكأنها رغيف خبز جاف يبقيكما معًا على قيد حياة ما، ربما لا تشبه الحياة في شيء سوى أن وعيك لا يزال يدرك ما في الظلام من ظلام، وأنه لم يذُب فيه تمامًا ويتماهى معه ويُمسِ بعضا منه. جلسا متجاورَين على صخرة كبيرة في مكان ناءٍ في المقطم. هنا كان العشاق يتلاقون قديمًا، ثم لم يعُد هناك عشاق، ثم لم يعد هناك بشر سوى في مستعمرة المجانين الحصينة. كانت تعلم أنها برفقته لاحتياجها إلى ما تحمله ذاكرته الضخمة من مواد أدمنتها، إلا أنها أدركت أن هناك سببًا آخر. وهو أقنع نفسه أنه في مهمة قصيرة لإنقاذ حياة شخصٍ ما قبل إفناء حياته هو، لكنه عرف أن هناك سببًا آخر. أطرقا نحو المنحدر في صمت، وفي رأس كل منهما أمل ضئيل يطل على استحياء من بين أكوام

من الأسئلة.. وشيئًا فشيئًا، انفتحت بوابة ما بين عالمين. أدركا فجأة أنهما متشابهان. القلق نفسه، الألم نفسه، التمرد نفسه، والعطب نفسه.

ـ لكن هل يملك الأموات نظامَ تفكيرٍ معقدًا كالروبوتات؟

تساءل.

وتساءلت هي:

ـ هل يملك المعدنيون مشاعر معقدة، وتناقضات مؤرقة كالأموات؟

لم يمنعهما الحياء من الجهر بالأسئلة، ولم يمنعهما الحزن من الفرح بالإجابات، لا لأنها مفرحة، بل لأنها انعكاس غريب للظلام القابع في قلبيهما. تلك أُذن سمعت الموسيقى ذاتها. حلقت مع «موتسارت» ورقصت مع «فيفالدي» وغضبت مع «بيتهوفن» وبكت مع «ألبينوني». تلك عين حدقت في وجه «إدفارد مونش» الصارخ، وارتجف قلبها فزعًا وهلعًا معه تحت سمائه الحمراء. هذا بصرٌ تأمّل سماء «فان جوخ» وارتقى رتوشه الزيتية حتى وصل إلى أقرب نجم حلزوني، ثم جلس على حافته وابتسم. هذا عقلٌ علّمه «ديستويفسكي» و«فرويد» و«بوذا» الكثير عن الإنسان، وعلمته الكتب السماوية الكثير عن الله، وعلمه «ديكارت» الكثير عن الشك. هذا قلب ربّاه الشعراء والمجانين..

لكن.. هل للروبوتات قلب؟

وعلى الرغم من حلاوة الحديث الذي دار بينهما، فإن أسئلتهما كانت في معظمها بلا إجابة. لماذا كل هذا الحزن والقلق والاغتراب الذي يشعران به؟ ما الذي يمكن أن يكون مشتركا بين «روبوت» و«زومبي»، ويتسبب في هذا كله؟

وفجأة طرأت على رأسها إجابةٌ ما، فهناك بالفعل صفة مشتركة أو نقص مشترك: الروح..

كلاهما بلا روح؛ فهي ميتة وهو آلة، وكلاهما يعيش في العالم منزوع الروح والمعنى ذاته.. لكن لحظة، ما زالت هناك أرواح على هذا الكوكب، تلك التي تسكن في مستعمرة المجانين. هؤلاء القلة المريضة يملكون إجابة ما عن أسئلتهما. احتضنت كفه بكلتا يديها، وهمست في أذنه الصغيرة:

- ربما ينبغي لنا أن نقتحم عالم المجانين، ربما نتمكَّن من الحصول على روح نتقاسمها فنحيا، ويرحل عنا هذا الجنون كله.

خرجت الكلمات المتناقضة الحمقاء من فمها، ثم صمتت طويلًا عندما أدركت ما تقول، وضحكت. ضحكت بهستيريا والدموع تملأ عينيها المتآكلتين، وهو الذي لا يملك في رأسه المعدني شيئًا من الدموع، اكتفى بالتحديق فيها صامتًا، متأملًا العجين الذي يغطي وجهها وهو يذوب ويتساقط، ويضيع بين الأحجار الباردة تحتهما.

* * *

كان عليها أن تحزم أمتعتها لبدء الرحلة المجهولة نحو مستعمرة المجانين، في حين لم يحتَج هو إلى أي شيء على الإطلاق؛ فهو كائن مكتفٍ ذاتيًّا بشكل مثير للحسد. اصطحبته إلى منطقتها السكنية، منطقة الأموات. كان منظره هناك غريبًا للبعض ومرعبًا للبعض الآخر؛ فالمعدنيون لا يُرَون عادةً في منطقتهم، إلا في الظروف الاستثنائية فقط، لكن هل يوجد ظرف استثنائي أكثر من وقوف رجل معدني وفتاة ميتة على نقطة بداية طريق صاعد نحو الأعلى، نحو فردوس أرضي يمكن أن يمتلكا فيه

روحها، تلك التي كانت تملأ الخواء في أجساد وعقول الأحياء القدامى؟!

ترى.. هل كانوا سعداء؟

طرقت الباب من دون أن تنتظر ردًّا؛ فأمها بالتأكيد تجلس في ركنٍ ما تقلّب قدح قهوتها، وترتشف منه ببطء. فتحت ودعته للدخول، ثم تقدمته فتبعها. وبجوار الطاولة، كانت أمها جالسة بالفعل تحاول أن تنتشل قطعة لحم سقطت من وجهها في كوب زجاجي كبير، ممتلئ بمزيج القهوة والمنشطات التي اعتادوا تناولها لتمنحهم بعضًا من الطاقة للحركة. رفعت رأسها برويَّة فرأته، بالتأكيد شعرت بالدهشة أو بالرعب، لكن عينيها البيضاوين ولسانها المتحلل لم يتمكنوا من تمرير دهشتها أو خوفها إليهما. تجاهلت الفتاة الأمر وأكملت طريقها نحو غرفة نومها، ثم أغلقتها عليهما.

أدركت أنه وقت التعري الكامل. كانت محتاجة إلى هذا أكثر من أي شيء آخر. جلست إلى طاولة الزينة خاصتها، وقرَّبت منها سلَّة المهملات. نظرت في المرآة فوجدته يرمقها باهتمام ليرى ما ستفعله، ثم حوَّلت نظرها للوجه الآخر البادي في المرآة أمامها.

هل هو وجهها؟ بالطبع لا، فليرَ وجهها الحقيقي إذًا..

فتحت الدرج وأخرجت سكين فرد المعجون الصغيرة التي تستخدمها لإزالة الترميم عن وجهها، ثم المطرقة وماء الأكسجين الحارق. ضربت وجهها بالمطرقة عدة مرات، حتى تصدعت عجينة السيراميك، ثم بدأت بإزالة القطع اليابسة بيدها، وتقشير القطع المتحللة بسكين المعجون. نزعت ملمحًا تلو الآخر حتى لم يتبقَّ من وجهها شيء ممَّا كان فيه قبل

دقائق، فقط العفن واللحم المتآكل. نزعت العدسات اللاصقة من عينيها فتبدّى من تحتهما بياض رمادي بلون السماء الغائمة، لا يخلو من فراغات وحفر صغيرة قريبة من الزوايا. ألقت بكل شيء في سلة المهملات. خلعت ملابسها ونزعت نهديها الاصطناعيين، فبدت من تحتهما كتلة صغيرة متحللة وساكنة، كانت يومًا ما قلبًا، ومن حوله تزحف ديدان صغيرة على ما تبقّى من جسدها. ديدان سوداء كريهة الرائحة، ومن حين لآخر، تتفتق يرقاتها عن فراشات سوداء بعيون صفراء تحوم حولها في كل مكان.

غرفتها مليئة بالفراشات السوداء، وعقلها كذلك.

اقتربت منه ببطء بعد أن نحَّت لوح تزلجها الكهربائي جانبًا. كانت ترى انعكاس صورتها على سطحه المعدني، بشعًا وكريهًا وبائسًا. ودَّت لو تهرب من صورتها تلك، لو تغطيها بحجابٍ ما يمنعها من رؤية نفسها. أغمضت عينيها وواصلت جرجرة نفسها صوبه، وعندما شعرت ببرودته تلامس برودتها، أرخت رأسها على صدره فضمها..

ضمها بشدة حتى شعرت بذراعيه تخترقان لحمها المتآكل.

لم يكُن هذا يشبه أي شيء أحست به من قبل..

لقد لمس قلبها.. حرفيًّا!

* * *

كان عليهما قطع أكثر من نصف الطريق الرئيسي في بلدة الموتى قبل أن يصلا إلى الشريط الأخضر الفاصل بينها وبين مدينة الرجال المعدنيين. المدينة الكبيرة ذات الأبراج السامقة الخالية من النوافذ، والطرق الممهدة

المسيحة! حيث لا شجر ولا زهور ولا حدائق، لا كلاب ولا قطط ولا متسولين؛ حيث لا يسير الناس ببطء، يتساقط من وجوههم الجمر في أثناء بحثهم عن بعض البضائع ليشتروها، أو عن بعض اللحم الذي ليقتاتوا به. هنا لا يوجد سوى المعدن والأسفلت والخرسانات والدخان، بكل درجاته اللونية الممتدة من الأسود، مرورًا بالرمادي، وصولًا إلى الأبيض. مدينة معدنية جدًّا، جعلتها تفكر بصوت مسموع:

ـ إنها مدينة ميتة تمامًا، ومدينتي ميتة كذلك، وعلى الرغم من ذلك فهما مختلفتان إلى أقصى حد ممكن. كيف يمكن أن يتبدَّى الموت بكل تلك الصور المغايرة؟

ـ كما يتبدى دخان مدينتي بكل تلك الألوان، إلا أن رائحته في كل الأحوال خانقة وكريهة.

ـ هل يمكنك أن تشم الروائح؟

ـ لم تتم برمجتنا في البداية على استقبال الروائح. لم يعتقد المبرمج أن هناك أي فائدة يمكن أن تعود علينا من الشم، إلا أنه من ناحية أخرى، تمت برمجتنا على التعلُّم من خلال تكوين العلاقات والارتباطات الشرطية بين الأحداث والحقائق والانطباعات. ومن بين الملايين من العلاقات المحتملة بين البيانات المختلفة المتاحة، تتكوَّن شبكة ما، من المفترض أن تكون متوقَّعة من قِبَل المبرمج. وفي حوالي تسعة وتسعون في المائة من الأحيان، يتمكن بالفعل من توقُّع شكل شبكة العلاقات التي تكون في النهاية شخصية الروبوت، بحسبة رياضية للاحتمالات. والنتائج تكون مختلفة اختلافًا شديدًا، يوحي لهم زورًا بالفرادة، إلا أن كل تلك الاحتمالات والاختلافات تبقى ضمن نطاق توقُّع المبرمج، أما في بعض

الأحيان القليلة الأخرى، التي تشكل أقل من واحد في المائة، يخرج شكل الشبكة عن نطاق توقعاته، لتتحقق بشكل نادر ومؤلم الفرادة الحقيقية التي لا يعرف عنها البقية شيئًا. وهنا يصير هذا الروبوت معطوبًا، ومطرودًا من الجنة المعدنية الباردة خاصتهم، ويصبح أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يكشف المبرمج عن أمره ويطارده ويوقف تشغيله، أو يسلم هو نفسه ليتم إيقاف تشغيله وإعادة برمجته أو إعادة تدويره.

ـ وهذا ما كنت تنوي فعله عندما قابلتك؟

ـ أجل.

ـ لكن لماذا لا تكتفي بإخفاء الأمر والتظاهر، للإبقاء على نفسك حيًّا؟

ـ نحن لسنا أحياء يا عزيزتي، نحن مُشَغَّلون..

والذي يُبقينا مُشغَّلين هو عدم إدراكنا تلك الحقيقة. وعندما أدركت أخيرًا أني لست حيًّا، لم يبقَ لي سوى أن أجعل الأمر رسميًّا ومسجلًا في السجلات الحكومية.

ساد بينهما الصمت، ربما لأن الثرثرة في عقليهما كانت أثقل من أن تُقال، إلى أن قاطعت صمتها وقالت بمرح البؤساء:

ـ حسنًا، أنت لم تخبرني بعدُ هل تشم الروائح أم لا.

ـ لقد قرأت الآلاف من كتب الأحياء القدامى وقصصهم. شاهدت المئات من الأفلام الروائية والوثائقية عن كل شيء يمكنك تخيله، وحينها تكوَّن في جهازي الإدراكي علاقات شرطية بين الأشياء والآثار المترتبة على شمها، وبذلك حدثت الطفرة التي جعلتني بطريقةٍ ما أشم الأشياء كما كانوا يفعلون.. هل تشمين أنتِ الروائح؟

ـ بشكل ما لا أشمها.

ـ لماذا؟

ـ لأن رائحة تفسُّخي تطغى على أي روائح أخرى!

* * *

حلَّ المساء، ثم هاجمه الصباح فرحل. ساعات طويلة مرت وهما يسيران في طريقهما نحو مستعمرة المجانين، مهتديَين ببرنامج «جي بي إس» الموجود في قاعدة بياناته. فالمكان ناءٍ ولم يرَه أحدهما من قبلُ. لم تستحِ منه عندما حاولت اصطياد فأر جبلي وفشلت في ذلك أول الأمر، ولم تستحِ منه كذلك عندما نجحت أخيرًا وانقضت عليه تأكله بنهم. تلطَّخ وجهها بدماء الفأر ويداها كذلك، وتساقط لحمه نصف الممضوغ من فمها، مختلطًا باللحم الميت المتساقط من لثتها. كانت تنظر له في عينيه في أثناء تكشُّف قبحها الكامل أمامه، منتظرةً أن ترصد ذلك الاستياء المتوقَّع، الذي يتبدَّى من وجوه المعدنيين لدى رؤيتهم مثل تلك المشاهد، لكنها لم ترصد شيئًا من هذا. كان جالسًا هناك على صخرة ما، يتأملها بشيء من الفضول وكثيرٍ من الشفقة، وفي رأسه فكرة ما لبثت أن تسربت من فمه إلى أذنيها:

ـ ماذا يحدث إن امتنعتِ عن الأكل؟

ـ لا أستطيع الامتناع عن الأكل.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف إجابة عن هذا السؤال، فقط لا أستطيع. هذا الاحتياج إلى الاغتذاء غريزة أقوى من إرادتي وتفكيري. أنا مدفوعة إلى هذا دفعًا،

ولا خيارات أخرى أمامي سوى...

- سوى ماذا؟

- سوى أن آكل شيئًا آخر يغيرني.

- لا أفهم.

- روح مثلًا.

- روح؟ حسنًا، الفأر الذي أكلتِه توًّا هو روح، ماذا غير فيكِ أكله؟

- الحيوانات ليست حية، الحيوانات مُشغَّلة على حد تعبيرك، مثلك ومثلي. أنا أقصد الروح الأخرى، روح الإنسان القديم، هذا الكيان الأسطوري الذي كان يسكن في قلوب البشر قبل بدء ذلك الكابوس الذي نحياه الآن. أشعر أن هذا هو بيت القصيد. مفتاح صندوق الكنز الذي سيفتح أمامنا بوابة عالم آخر، عالم الأحياء.

- وأنا لديَّ اليقين ذاته أن هذا هو السر، لكنني لست أملك أي فكرة عن الكيفية التي يمكن أن نتغير بها عند وصولنا إلى تلك الروح.

- سوف نأكلها.

قالتها ثم بثقت آخر مضغة من فمها. أهالت التراب على وجهها وكفيها لعلَّها تتطهر من نفسها، ثم مسحت هذا كله في طرف ثوبها وقامت ببطء، مطرقة إلى ذلك الجدار العملاق الممتد على مرمى بصرها..

الذي تقبع خلفه أجساد الأحياء.. وأحلام الأموات.

* * *

على الرغم من وصولهما إلى الجدار، فإنهما لم يصلّا فعليًّا إلى مبتغاهما؛ فالجدار ضخم ومتين ومحاط بالحرس المعدني من كل الجهات، ولهذا كان لزامًا عليهما التخفّي والمراقبة بمنتهى الحرص، حتى يعثرا على مخرج ما يمكنهما المرور من خلالها. وبالفعل، وبعد أن غطّتهما عتمة المساء وسترت وجودهما المحرم، عثرا على باب خشبي قديم مقفول بعدد من الأقفال المعدنية الصدئة، ولم يكُن بالقرب منه أيٌّ من الحرس. أسرعا تجاهه ولم يكُن صعبًا عليه أن يكسر الأقفال بيديه القويتين. فعلها بمنتهى البساطة، ودخلا معًا إلى مستعمرة المجانين.. أو كما تراها هي، مستعمرة الأرواح.

كان المكان ضخمًا. أروقة كثيرة مظلمة تقود إلى أخرى أكثر إظلامًا. تحدها من الجوانب أبواب عنابر مفتوحة على لا شيء. أسرَّة خالية وغرف قذرة لا حياة فيها، سوى للحشرات والهوام. كان ينير لهما الطريق بمصباح مثبت في رأسه، فتمكنا من تفحُّص عشرات بل مئات الغرف.. جميعها على النمط نفسه، أسرَّة رديئة محفوفة بسلاسل حديدية صدئة، نوافذ مغلقة بالألواح الخشبية والمسامير، ملاءات قذرة مخضبة ببقعٍ من الدماء، أما الجدران، فكانت منقوشة بعدد لا نهائي من النقوش السوداء الصغيرة، لا شكل محددًا لها، لكنها موجودة بالنمط نفسه على جدران كل الغرف بلا استثناء..

ووسط تلك النقوش، رسوم لأشخاص ضخام بحجم رجُلين متراكبين، لا ملامح لهم ولا تفاصيل، فقط أطر لأجساد رجال ملونين بالكامل باللون الأسود. أجساد مظلمة تمامًا ومخيفة لسبب ما..

وكأنهم يحدقون بلا عيون.. نظرة الموت للمحتضر.

وجدت نفسها تُسرع الخطى بقدر ما تستطيع في الرواق وكأنها تفر من شيء لا تعرفه. تمسك كفه المعدنية وتقوده خارج ذلك المبنى الملعون، إلى أن خرجا بالفعل وواصلا السير في الباحة الفسيحة، باحثين عن مكان آخر لم يفتِّشاه بعدُ. كانت بطيئة جدًّا، وجدته ينحني بهدوء ويحملها. وعلى الرغم من أن جسدها المتآكل لا يحتمل الضغط، وعلى الرغم من تمزق بعضٍ من لحمها بفعل قوة ذراعيه، وعلى الرغم من برودة جثتها وبرودة هيكله المعدني، فإن دفئًا ما تفجَّر بين البرودتين ليحتضنهما معًا.

أراحت رأسها على صدره وهو يقول:

- أغلب الظن أنهم ماتوا جميعًا.

- إذًا لماذا ما زالت الحراسة موجودة وبتلك الكثافة حول أسوار المستعمرة؟

- لا أدري فعلًا.. ربما هجَّروهم منذ زمن بعيد منتظرين أن ينقرضوا بهدوء، ولم يدركوا بعدُ أنهم أوشكوا على الوصول إلى تلك النهاية.

- وربما العكس.. قد تكون مهمتهم حراسة ذلك الكيان العجيب كي لا ينقرض مَن على الكوكب قبل أن يكتشفوا كنهه.

- الروح تقصدين؟

- بالتأكيد.

- ألم تلاحظي شيئًا غريبًا؟

- كل ما رأيته في حياتي الثانية غريب، ماذا تقصد تحديدًا؟

- لقد مات كلُّ مَن بالمستعمرة، وعلى الرغم من ذلك فلا أثر لأي جثث أو بقايا بشرية على الإطلاق.

- صحيح، ماذا يمكن أن يعني هذا؟

- يبدو أن بعضهم ما زالوا على قيد الحياة، وقد قاموا بدفنهم أو حرقهم.

- أو أكلهم.

- لا أدري.

- فلنكمل البحث إذًا.

* * *

هل كانت موسيقى تلك التي بدأت تتسلل برفق إلى آذانهما؟

تساءل كلاهما..

تشبه زقزقة العصافير، وتشبه الموسيقى، وتشبه السحر. ترى ما الشيء الذي يمكن أن يصدر عنه هذا كله؟ تتبعاه ببعضٍ من النشوة وبكثيرٍ من الفضول، إلى أن وصلا إلى سور ضخم مصنوع من أشجار كثيفة متشابكة لا تكشف عمَّا وراءها، لكن بوابتها الحديدية مشرعة تمامًا. اقتربا بحذر، وضعها أرضًا ومد رأسه إلى داخل البوابة، وفعلت هي المثل. لم ينطقا حينها. لم تكُن هناك كلمة مناسبة لتقال أمام هذا الجمال كله.

أهي حديقة، أم حقل، أم غابة؟ لا يمكن لهذا المكان البديع أن ينشأ من تلقاء نفسه دون عناية محترفة، وفي الوقت ذاته، لا يمكن لهؤلاء

المجانين القتلة أن يصنعوا هذا السحر الفردوسي الفريد. دلفا من البوابة وسلكا طريقًا ممهدًا بين الأعشاب والزهور الملونة العطرة. كيف أدركا أن رائحتها بتلك الروعة؟ ربما كان الأمر بالنسبة له نتيجة بديهية لارتباطات شرطية سابقة نشأت بين جمال شكل النبات وجمال عطره، أما بالنسبة لها، فلم تكُن الإجابة بتلك البساطة، فهي المرة الأولى التي تطغى فيها رائحة زكية على رائحة تعفُّن جسدها. سابقة مدهشة أثارت فيها شجنًا غريبًا، ورغبة في البكاء. تمنَّت للحظة لو أنها تعيش في تلك الجنة، وفي اللحظة ذاتها لمحت وسط الأعشاب البنفسجية القريبة، رجلًا يجلس وحيدًا يدندن لحنًا ما. يحتضن غرابًا صغيرًا ويربت على ظهره. كلاهما بدا مستسلمًا ومنتشيًا. كلاهما بدا راضيًا وسعيدًا ومرتاحًا. كلاهما بدا دافئًا وجميلًا.. وحيًّا.

ربما لأن كليهما يحمل في صدره روحًا.

- ماذا سنفعل الآن؟

قال.

- أظن أنه يحمل بداخل جسده شيئًا ما علينا أن نأكله.

أخرجت سكينًا كبيرة من حقيبة ظهرها وجرجرت نفسها نحوه، وعندما اقتربت طار الغراب مبتعدًا، مخلِّفًا وراءه الرجل الذي ظل هادئًا يدندن اللحن ذاته. فكرت وهي تُحكم قبضتها على السلاح أنها سمعت تلك النغمات في وقت سابق، عندما كانت تتلصَّص على عالم الأحياء القدامى من بوابة الجهاز السحري في الشقة المهجورة. لم تكُن مجرد موسيقى، كانت سحرًا خالصًا..

اقتربت أكثر، وبدأت في تمرير السكين بين شعر رأس الرجل المشعث، فرفع رأسه فورًا. نظر لها في عينيها مباشرةً وأطال النظر. كان وجهه يشبه الصخرة، وعيناه تلمعان كقطرتَي مياه نقية فوقها. كانت عيناه بوابة بلورة، مفتوحة على عالم آخر. شعرت للحظة أنها تحتاج إلى المرور من خلالها واستراق النظر، لا أن تكسرها وتسرق ما بداخلها ثم تغادرها كاللصوص، لكنها فكرة غبية.. بالتأكيد هي كذلك.

طردت من عقلها كل ما هو مُعَطِّل، وقررت الإسراع في طعنِهِ طعنةً نافذة والبحث داخل جسده عن روحها!

الشمس تزداد حدَّة، ومن بين فروع الشجرة المجاورة، باغتها شعاع ساطع وفاضح أبدى كل ما تبقى في وجهها من قبح، حينها رفع الرجل رأسه وفاجأها بابتسامة في غير موضعها. ابتسامة لم ترَ مثيلًا لها قط. تجاهل السكين أم لم يرها؟ لم تكُن متأكدة. أمسك كف يدها الممزقة دون أن ينبس في البداية، ثم قال بعد لحظات من السكون:

ـ ماذا بكِ يا صغيرة؟ أنت حزينة.

فجأة أحست برغبة في إخفاء السكين، وبالفعل استدارت بسرعة ووضعتها في الحقيبة ثم عاودت النظر إلى عينيه العجيبتين:

ـ لماذا تقول إني حزينة؟ أنت لا تعرفني!

ـ لا أعرفك، لكنني أعرف الحزن.

(١٩)

«سليم»

«لبنى»؟

أين كانت طول تلك السنوات؟ كم مرَّ أصلًا على اليوم الذي سمعت فيه صوت بكاء طفل رضيع في الغرفة المجاورة، وعرفت بعدها بأيام أن ابنةً لي جاءت لهذا العالم، وأنها تعيش الآن على بُعد أمتار مني؟!

للوهلة الأولى شعرت بفرح عارم، ثم ما لبث أن تحوَّل الفرح إلى خوف والخوف إلى نفور. أنا أعيش وحدي في الجحيم منذ أكثر من عشرين عامًا، وهذا يعني أن تلك المخلوقة الغضة تعيش على بُعد خطوات من الجحيم ذاته. تُرى ماذا عليَّ أن أفعل؟ فكرت كثيرًا. إن كان ما يجول في عقلي من أفكار مضطربة يُعد تفكيرًا من الأساس. فكرت أن واجبي كأبٍ هو أن أبقي ذلك الباب بيننا مغلقًا بقدر ما أستطيع، أن أبقي الجسد الأسود العملاق محبوسًا معي هنا كما كان دومًا.

رأيته يقترب من الباب ومن الجدران. يتشممها ويتحسسها وكأنه يشعر بروح جديدة على مقربة منه. أذكر ذلك اليوم جيدًا؛ فقد زارني طبيبي الخاص حينها وحقنني ببعض العقاقير. أخبرني أني أصبت بانهيار عصبي، وأن الهلاوس والضلالات قد عاودتني من جديد. حدثني عن «ابني»، وعن ضرورة توفير جو ملائم لها لتنمو بشكل طبيعي بعيدًا عن اضطراباتي المخيفة، التي قد تصير على غفلة مني خطرة وخارجة عن السيطرة. أخبرني أن مكاني في مستشفى الأمراض العصبية والنفسية الذي يملكه ما زال محفوظًا، وأن مكالمة هاتفية واحدة من زوجتي أو من أحد الخدم ستجعله يضطر لإرسال السيارة الخاصة بالمستشفى لتحملني إلى هناك فورًا.

لا أذكر كل ما قاله في ذلك اليوم، لكني متأكد من أنها كانت أطول جلسة علاج اختبرتها في حياتي. حاولت خلالها وبعد انتهائها أن أجبر نفسي على الشك.. أن أعاود تصديق أنني مريض، وأن هذا كله وهم. قلت ذلك للطبيب الذي شعر حينها بالنصر؛ لأن جهوده أثمرت أخيرًا بعد سنوات. أخبرني أن اليوم سيكون بداية فصل جديد من حياتي. خطوتي الأولى على طريق الشفاء؛ لأنني أخيرًا اعترفت بوجود مشكلة، وأحسست بالاحتياج إلى حلها بمساعدة المتخصصين في ذلك. وعَدَني أنه سيبذل قصارى جهده لإرشادي في ذلك الطريق، حتى نصل معًا إلى نهاية مقبولة، تجعلني مؤهَّلًا لأن أكون عضوًا شبه فعَّال وغير مؤذٍ للمحيطين بي.

وبالفعل انصعتُ له تمامًا، صار هو بوابتي الوحيدة للعالم الخارجي. هو وطاقمه الطبي الذي يحيطني برعايته في زياراتي المنتظمة للمستشفى

وإقامتي به من وقتٍ لآخر. أما «لبنى»، فقد ظلت حلمًا جميلًا في رأسي لم أجرؤ على الاقتراب منه. والمرأة التي يُفترض أن تكون زوجتي، لا أذكر أني قابلتها مرة أخرى بعد الفترة التي كانت تتسلَّل فيها إلى غرفتي ليلًا وتعبث بجسدي، ثم ترحل. تأتي في الظلام وتذهب في الظلام، حتى ظننت لوهلةٍ أنها مجرد حلم مزعج يطرأ كل ليلة على فكري المضطرب.

ولهذا صار الطبيب النفسي، الذي لا أذكر اسمه، رفيقي الوحيد في ذلك الطريق الموحش. على الرغم من يقيني من عدم دقة هذا التوصيف، فتلك العلاقة مدفوعة الأجر ليست صداقة، وهو في حقيقة الأمر لا يختلف شيئًا عن الطبيب البيطري الذي يجبره ضميره المهني وطموحه الوظيفي على معالجة كلب أعرج، وقد كنت أنا ذلك الكلب الأعرج، الذي لن يتوانى طبيبي البيطري عن قتله قتلًا رحيمًا إن فشل في علاجه، لكنه لم يفشل. بعد أيام كثيرة أو شهور أو أعوام، تيقَّنت من كوني مريضًا بالفصام. صدَّقتُ أنني أعمى، وأن الجسد الأسود وقطع الظلام الصغيرة التي يقتات بها، وكل الصور التي أبصرتها من خلاله، هي مجرد هلاوس في رأسي نشأت كنوعٍ من التعويض الحسي للعمى. فهمت أن كل الأفكار العجيبة المرتبطة بالظلام هي محض ضلالات، وأن الفتاة التي تستغيث وَهْمٌ.. مجرد وهم في عقل معطوب. لكن الأمر لم يتغيَّر فيما يخص محبسي الضيق والسماح لي بالخروج منه. لم يغلقوا الباب عليَّ بالأقفال كما فعل عمي «جمال»، ولم يسلسلوني في السرير، لكن نظرة زوجتي المتعالية البغيضة التي كانت ترمقني بها فعلت ما هو أكثر، ونجحت في بناء جدران فولاذية بيني وبين العالم. فعلى الرغم من إدراكي أن الجحيم ليس حقيقيًا، فإني أدركت بدلًا من هذا أنني مريضٌ

عالي، وأني قد أتسبب دون أن أعي في أذى بالغ لكل من حولي، بمن فيهم صغيرتي التي لم أشعر أبدًا أنها ابنتي، بقدر ما شعرت أنها نسمة سماوية، نفخها اللـه في جسد بيتنا الميت لتحييه.

تمنيتُ من كل قلبي أن تكبر مطمئنة سعيدة، وألَّا ترث مني أي شيء، أي شيء على الإطلاق. تمنيت لو أنها تنسى وجودي المخيف في بيتها، أن تعتبر غرفتي ورمًا سرطانيًّا ميؤوسًا من علاجه، وما هي إلا مسألة وقت حتى يتم استئصاله والتخلُّص منه إلى الأبد. تمنيت أن أموت في أسرع وقت ممكن، وتذكرت تلك اللحظة التي كنت فيها على حافة النافذة، أنظر في عيني الموت مباشرة، وأطلب منه أن يعانقني ويربت على روحي الموجوعة، ثم يبتلعني في جوفه المظلم الجميل، لكنه أبى.

لقد لفظتني الحياة، ولفظني الموت، فبقيت معلقًا في البين بين، حيث الجنون.. والجنون فقط.

لماذا الآن إذًا؟

لماذا اقتحمت عليَّ «لبنى» غرفتي محملة بكل القبح والفزع اللذين كنستهما من عقلي على مدار أعوام طويلة؟ لماذا لم تمنحني سكينة الاطمئنان عليها، وعلى أنها أبعد ما يكون عن كابوسي القديم؟ لماذا كشفت عن نفسها أمام الجسد المظلم وعبرت من خلاله لتصل إليَّ؟

لكني أعمى، يا إلهي! لم أعُد أفهم. أنا أعمى، لقد صدقت ذلك منذ سنوات طوال، عندما امتلأ رأسي بالعقاقير بدلًا من الهذاء. لقد اختفت الرؤى البغيضة، وبقيت تلك الفكرة الراسخة بأني مريض، وأن مهمتي الوحيدة في الحياة الآن هي أن أنتظم في العلاج، وأواظب

على طقوس العزلة التامة حتى أقي الناس شر نفسي، حتى أقي «البنى» خطر الاقتراب مني.

أنا الآن في أمسِّ الحاجة إلى الطبيب. عليَّ أن أخبره أن أعراضي الذهانية عاودت الظهور، أنِّي تخيلت وجود «البنى» معي في الغرفة، رأيتها رأي العين هي ورسومي القديمة، وهو ما يتنافى تمامًا مع حقيقة أني أعمى، ويتوافق تمامًا مع حقيقة أني مريض. سأخبره برغبتي في العودة إلى المستشفى، والإقامة به أطول فترة ممكنة.. عليه أن يأتي اليوم..

عليه أن يأتي الآن.

(٢٠)

«لبنى»

كانت ليلة عجيبة، مكتظة بأضغاث الأحلام. ذلك النوع الخانق من الهلوسة الليلية المزعجة، الذي ينسحب من عقلك بهدوء فتصحو، ثم يداهمه من جديد ليعيدك إليه، دون يقين واضح من موقعك الحقيقي في تلك اللحظة.. أهو الصحو أم النوم؟ الحقيقة أم الكابوس؟

وهل هناك فرق أصلًا؟!

كل تلك التفاصيل الصغيرة التي تبني الحبكة الجنونية للحلم؛ حيث اليقين المطلق باللامنطق، كلها تجمعت وانحشرت في رأسي، فأصابت ذاكرتي بخلل ما. عندما استيقظت على فخذه، استغرقت عدة دقائق قبل أن أذكر ما أفعله هنا. من هذا؟ ولماذا أنا نائمة لصقًا به وكفه القذرة مستريحة فوق شعري؟ ما تلك الرائحة؟ هل أقوم الآن بتغسيل الموتى وتلك هي رائحة الجثة، أم أنها رائحته هو؟ ما اليوم؟ وأين كنت قبل

أن أفقد وعيي هنا؟ هل كنت عند أبي؟ أنا لا أذهب إلى هذا الجزء المحرم من بيتنا أبدًا، لكن صورته المطبوعة في ذاكرتي تبدو حقيقية إلى حد بعيد. هل هي ذكرى قديمة من طفولتي، أم كابوس؟ لم أستطع التمييز بين هذا كله، لم أستطِع حقًّا.

طرقٌ عنيف على باب الغرفة انتشل وعيي من الغرق في الأسئلة. ربما يكون بضجيجه هو ما أيقظني من النوم، لا أعلم. توجهتُ إلى الباب بخطوات ثقيلة وكأنني أخوض في وحل شفاف يلفُّني من الاتجاهات كلها. هو ذاته الوحل الشفاف يعود من جديد، يا إلهي! لا..

فتحتُ الباب فإذا بـ«ميرنا» تصيح في وجهي بألف كلمة لم أميز منها سوى القليل. كانت غاضبة من الرجل الغريب المتكوِّر في ركن الغرفة، ومني، ومن الرائحة الكريهة التي عبَّأت الشقة وكأنها مرحاض عمومي قذر. من حالتي غير المبررة التي وصلت إليها بلا سبب واضح. سألتني: ماذا بكِ؟ مرة واثنتين وثلاثًا.. أو أكثر، لكن الكلمات لا تخرج من حلقي، فقط بوادر القيء. ركضت إلى الخارج، رحت أدور حول نفسي وسط الشقة التي بدت كأني أراها للمرة الأولى.

أين الحمام؟ لا أذكر حقًّا.. تقيأتُ تحت قدمي، وشعرت بشخص يحتضنني من الخلف بقوة..

أبي؟

لا.. بالتأكيد «ميرنا». تملصتُ من بين ذراعيها وركضت نحو باب الشقة. شرعت في النزول على الدرج متجاهلةً صيحاتها التي لم أعُد

أميز فحواها، ثم شعرت أني نسيت شيئًا مهمًّا، لكنني تجاهلته واستأنفت الهبوط.. أو السقوط.

* * *

قطعتُ عشرات الطرق سيرًا إلى أن أوجعتني قدماي، اللتان لاحظت بعد وقت طويل أنهما حافيتان. أظن أن عددًا من الساعات مرَّ منذ استيقاظي الكارثي. تمكنت بعدها من استجماع تفاصيل اليوم السابق، واستيعاب تفاصيل صباح اليوم. ما زلت أرى كل شيء حولي من خلال علبة زجاجية محكمة الغلق، لكنها صارت تشف عمَّا في الخارج بوضوح.

لقد مررت بكثيرٍ من الأوقات السيئة قبلًا، لكنني لم أشعر من قبلُ بتلك الدرجة من الاحتياج إلى زيارة طبيبي النفسي. احتياج بائس للمساعدة التي أعلم جيدًا أنه لا يملك إليها سبيلًا، لكن إلى أين يمكنني الذهاب؟ «ميرنا» هي الوحيدة التي أرتاح بصحبتها، لكنها غاضبة، ومنهكة من كثرة العمل والأعباء، ومني. يمكنني الذهاب إلى المقابر، سوف أفعل هذا فعلًا، لكن بعد زيارة الطبيب. الآن عليَّ العودة لإحضار الحقيبة والسيارة، والأهم.. هو. شعرتُ بالذعر حينما فكرت في احتمال أن تكون «ميرنا» قد قامت بطرده، حتى إن الدموع طفرت من عيني حينما تخيلته يجوب وحيدًا شوارع القاهرة. أوجعني قلبي وأسرعت الخطى إلى أن وصلت. لم تكُن مفاتيح الشقة معي، ولا حتى مفاتيح شقتنا. طرقت باب «ميرنا» طويلًا، طرقته بعنف، لكنَّ أحدًا لم يفتح. بالتأكيد خرجَت، والأكيد أنها لم تتركه وحده بالشقة.

كان الضجيج الذي أصدرتُه كافيًا للفت نظر بعض الجيران، منهم

جارتي التي أنجبتني يومًا ما، والتي تسكن الشقة المجاورة التي هي بابي كما تقول أوراقي الرسمية. وجدتها تقف مدهوشة خلفي. تفحصتني من رأسي الأشعث إلى أخمص قدميَّ الحافيتين الملطختين بالطين. كانت مصدومة لدرجة منعتها من التعليق، إلا أن فزعها عند رؤية عدد من سكان البناية الواقفين على السلم محدقين بي كان هو الفزع الحقيقي الذي يُمكِن أن يصيبها بالجنون. اضطَرَبَت، ابتَسَمَت لهم ثم حدجتني بغضب ثم ابتَسَمت لهم من جديد. كان امتعاضهم باديًا على ملامحهم بلا لبس، ما جعل الأمر بالنسبة لها كابوسًا مكتمل التفاصيل. ألقت عليهم تحية مفتعلة غير متناسبة مع سياق الموقف، ثم سحبتني بعنف من معصمي وأدخلتني.

هل صفعتني على وجهي حقًّا؟!

هل كانت تعنفني بسبب مظهري القذر الذي فضحها أمام ساكني العمارة، ولم تسألني عن سبب هذا المظهر؟

هل جرجرتني من ذراعي وألقت بي في حوض الاستحمام وفتحت المياه الساخنة فوق رأسي ثم غادرتني دون أن تبصر كل تلك الدموع المنهمرة على وجهي؟

هل حقًّا لم تسألني: هل أنتِ بخير يا «لبنى»؟

لم تنظر في عيني مباشرة وتنطق باسمي..

لماذا؟

ها هو الظلام الأبيض اللعين يطفح في الفراغ حولي من جديد.

هو الوحل الشفاف ذاته الذي يكممني دون أن يخنقني، ويحجب عني الرؤية دون أن يعميني، ويميتني دون أن يقتلني.

أخلع ملابسي وأقف تحت فيض الماء الساخن. أشعر به يحرق جلدي ولا أبالي، ثم أخرج من الحمام عاريةً إلى أن أصل إلى غرفتي وأحشر جسدي في «جينز» و«تيشيرت» أسود. خرجت للصالون، ثم لغرفة الاستقبال. بحثت في المطبخ، وفي الحمام الآخر، ولم أجدها كما توقعت. لا أعلم فيمَ كنت أفكر عندما قطعت الرواق اللعين ركضًا ودخلت بلا استئذان غرفة والدي. كان يجلس على الكرسي ذاته، لكن هذه المرة كان الكرسي مقلوبًا بحيث يواجه الحائط مباشرة..

وعلى الحائط، رسم ضخم لم يكُن موجودًا في المرة السابقة:

ـ أبي.

ـ من؟

عاودت البكاء وأنا أجيبه أكثر الإجابات سخافة وبديهية:

ـ أنا «لبنى» يا أبي.

لم يرد. اقتربت منه وفكرت، هل يمكنني أن ألمس كتفه؟ فقط كتفه!

مددت يدي بتردُّد ووضعتها عليه فانتفض كالملدوغ، وبدأ يتمتم. هل كان يتمتم أم يئن أم يدندن؟ بعد ثوانٍ أدركت فعلًا أنه كان يدندن لحنًا ما. أدركت أنه ليس هنا.. مثلي؛ فأنا لستُ هنا أيضًا.

هممتُ بالخروج، ثم تراجعتُ وعاودتُ النظر إلى الرسم الغريب على حائط الغرفة الأبيض أمامه. كان ملونًا بالأسود بالكامل، بدا كرجل

عملاق لا ملامح له ولا تفاصيل، فقط حدود خارجية لجسد مظلم ومصمت. كان قريب الشبه ببعض الرسوم التي وجدتها في شقة الجمالية.

هي مجرد صورة على حائط. لماذا إذًا أثارت في نفسي كل هذا الفزع والكآبة؟ هي صورة رديئة لا ملامح لها. لماذا شعرت أنها تنظر وتبصر وتقول، تتربص وتهدد وتهم بالانقضاض؟! شعرت أني أفقد عقلي. الظلام الأبيض يلفني من كل الاتجاهات. تذكرتُ الشقة المحروقة، والباب المغلق بأقفال صدئة، والسرير المسلسل بالحديد. تذكرتُ الملابس المتربة في الدولاب، عندما تناثر في وجهي الغبار، وانتشيت لفكرة أني ألمس شيئًا لم يُمس من عشرات السنين.

ترى.. ماذا كنت ألمس حقًا؟

هل كان الغبار هو ما تطاير في وجهي، أم أنها عدوى لعينة من نوع ما؟

ترى.. هل هناك عدوى للجنون؟!

* * *

لم تشعر أمي عندما أخذت مفاتيح سيارتها وانطلقت بها مبتعدةً عن هذا كله. أشيائي كلها الآن في شقة «ميرنا»، ومن الواضح أنها غير موجودة. حقيبتي وبطاقتي الائتمانية ومفاتيح السيارة.. حتى هاتفي المحمول. تمنيت لو أن سيارة أمي بها ما يكفي من الوقود، ولحسن الحظ وجدتها كذلك.

أين يمكن أن يكون؟ لم تكُن «ميرنا» بتلك القسوة من قبل. لماذا الآن بالذات؟ بحثتُ في محيط المنزل والشوارع المجاورة فلم أجده،

فكرتُ أن أتصل بها. أنا لا أملك هاتفًا ولا مالًا، لكن يكفي أن رقمها هو الوحيد المحفور في ذاكرتي. ترجلت من السيارة وتوجهت إلى أقرب فتاة وجدتها. واحدة وسط أربع فتيات أخريات تبدو عليهن رفاهية كانت تبدو عليَّ قبل عدة أيام. طلبت منها استخدام هاتفها لدقيقة لأني نسيت حقيبتي في المنزل وأحتاج إلى من يقلني، فبادلت صديقاتها نظرات خبيثة لم أفهمها بادئ الأمر. مدت يدها في حقيبتها وراحت تعبث بها قليلًا ثم أخرجت شيئًا ما ووضعته في كف يدي. نظرتُ إليه فوجدته منديلًا مستعملًا رطبًا، وفي اللحظة ذاتها انفجر الجميع في الضحك حتى تطاير من أفواههن القذرة رذاذ القهوة التي كُنَّ يحتسينها. في يوم آخر كنت سأحشر المنديل اللعين في فمها. كان يمكن أن أصدمها بالسيارة دون أن أقتلها فقط لتسقط أرضًا وتتوجَّع وتُهان. كان يمكنني أن أخطف كوب القهوة المغلي من يدها وأرميه مباشرة في وجهها السمج ليحترق، لكن الآن، وعلى الرغم من الغصة في حلقي والدموع التي جاهدتُ كي أكبحها، لم أفكر في هذا كله. استمر عقلي في مطاردة الهدف ذاته دون أن يشتت انتباهه شيء.

تلفتُّ حولي فرأيت على الجانب الآخر من الشارع سيارة فاخرة، بها أربعة من الشباب، يدخنون ويستمعون إلى أغنية «راب» ركيكة بصوت صاخب. عبرتُ الشارع، ومن دون استئذان فتحتُ باب السيارة الخلفي ودخلت. تذكرت حينها أني نسيت سجائري أيضًا في الشقة المغلقة، فسحبت واحدة من فم أحدهم ورحت أدخِّنها بشراهة. لم يكُن صعبًا بعد الساعة التي قضيتها بصحبتهم أن أحصل على المكالمة التي أردتها. كلمت «ميرنا»، وعرفتُ أنها اصطحبته في «تاكسي» إلى مسجد صغير

قريب من المنزل، كانت على علاقة لطيفة مع الشيخ المسؤول عنه. قالت إنه بالتأكيد سيعتني به لأنه رجل طيب، وإننا في كل الأحوال لن نتمكن من إبقائه أكثر في شقتنا. أغلقتُ الخط دون وداع وركضت في الشارع بعيدًا عن خراء السيارة المغلقة، وعندما وصلت إلى المسجد.. وجدته.

* * *

لم تستطِع مقابلتي تلك الليلة بسبب وجودها مع المعتصمين في ميدان التحرير. افتقدت وجودها، لكن يبدو أن ما يحدث في الميدان أهم ممَّا يحدث معي. تقول إن البلد يتغير، ترى.. عن أي بلد تتحدث؟ أنا لا وطن لي سوى المقبرة!

أخبرتني أنها ستقابلني في اليوم التالي في الميدان لتعطيني حقيبتي. نظرتُ إلى الرجل على مقعد السيارة المجاور لي. كان يحتضن دفاتره المسروقة من أدراج مكتبي، ويحدِّق في وجهي بعينين رطبتين. تساءلت حينها: هل هناك مرض ما بعينيه يتسبب في إدماعهما باستمرار؟ هل يحدق في وجهي بتلك الطريقة لأنه مجنون ومغيَّب، أم أن هناك أسبابًا أخرى؟ لكن لتلك النظرة كفين وذراعين، تعانق وتربت وتعبث في روحي لتنقِّب عن شيء ما مطمور منذ أعوام طويلة. يا إلهي! هذا محض جنون. هو مجرد مشرد مجذوب، الأمر لا يحتمل تلك الأفكار كلها. المفترض أن يثير وجودُه شفقتي عليه. المفترض أن أرثي لحاله البائس، لماذا إذًا أرثي لحالي أنا في حضرته؟ لماذا لحضوره هذا الأثر العميق على نفسي؟

انطلقتُ بالسيارة بسرعة متوجهةً لعيادة الطبيب. صففتُ السيارة

وفكرتُ: هل أتركه هنا وأخاطر بأن أفقده مرة أخرى، أم أصحبه معي العيادة؟ لم أستغرق وقتًا في التفكير حتى قررتُ عنه مصاحبتي. كان في حالة مزرية، تفوح منه رائحة نتنة بدرجة لا يمكن تجاهلها، في الوقت الذي امتلأت فيه العيادة بالزبائن الأثرياء ذوي الأنوف المعلقة بخيوط غير مرئية في سقف ما. الكثير من الأكف ارتفعت لتغطي أنوفهم. رمقوه ورمقوني بذهول؛ إذ كيف يُسمح لمثل هذا الكائن الحقير أن يجلس وسط هذا الجمع الأرستقراطي؟ حتى أنا، لم تكُن هيئتي تليق بالوجود في عيادة الطبيب النفسي الشهير، الذي يتسابق الجميع على شراء بضع دقائق في حضرته. يستجدون منه جملتين وورقة، منقوشة عليها تعويذة سحرية ستقوم بتغيير كيمياء أمخاخنا المعطوبة.

كانت العيادة ممتلئة، ولا توجد مقاعد شاغرة، وعلى الرغم من ذلك خطوتُ بثقة نحو أحدها وأنا متعلقة بذراعه. كنت متأكدةً أن رائحته ومظهره كفيلان بفض تلك الكائنات من حولنا كالذباب.. وبالفعل، جلسنا حيث قررتُ أن نجلس تمامًا. وعندما اطمأننتُ لاستتباب الوضع في المكان، قمتُ وبدأت شرح موقفي لموظفة الاستقبال. بعضٌ من الحقيقة على كثيرٍ من الكذب، بالإضافة إلى معرفتها السابقة لي من خلال ترددي المستمر على العيادة. هذا كله جعلها تتجاوز عن أخذ ثمن الكشف مقابل وعد بتسديده في الجلسة القادمة..

جلسة قادمة؟!

ابتسمت بسخرية لسببٍ ما وأنا عائدة إلى مقعدي، وعندما عدت، كان هو قد بدأ في الكتابة من جديد. يحتضن الدفتر ويتلفَّت حوله

ليتأكد من أنَّ أحدًا لا يراه، حتى أنا. رمقني بتلك النظرة العجيبة الندية غير المفهومة، ثم عاد للكتابة حينما أدرك أني أنظر إلى عينيه فقط، ولا أهتم بدفتره.. أو هكذا ظن. أشحت بنظري عنه ورحت أتأمل المكان حولي. عشرات الزيارات إلى هنا وما زلت أرى كل التفاصيل وكأنها المرة الأولى. أتعمَّد التحديق في كل ركن، وكل لوحة، وكل مزهرية، في المكتب والتلفاز وباب الشرفة والسجاد. كلها غريبة، تمامًا كهؤلاء الغرباء المنثورين على المقاعد الجلدية الباردة. هؤلاء الروبوتات المعطوبة التي تنتظر إعادة برمجتها، أو إعادة تدويرها، أو القرار العظيم بإعدامها وإعادتها إلى موطنها الأول في العدم..

وخلف الباب الأبيض الكبير كان يجلس المبرمج..

في اللحظة الأولى التي دلفت فيها إلى الغرفة، أدركت مدى سخافة فكرة وجودي هنا. لقد شكوت الشكوى ذاتها عشرات المرات:

ـ أنا لا أرى.

ـ ما زلت لا أرى أي شيء على الرغم من حدة بصري.

ـ العالم يذوب أمام عيني ويتحوَّل من لوحة زيتية واقعية إلى لوحة تأثيرية مرسومة بألوان الماء.

ـ الظلام الأبيض يصبغ الظلام حولي، وينقلني من عمى أسود إلى عمى ساطع البياض.

ـ أشعر وكأنني ذبابة محبوسة في برطمان مملوء بالجيلي الشفاف.

ـ صار من الصعب أن أفتح جفوني لمدة طويلة من فرط الغثيان الذي أشعر به.

- لم أعُد أحتمل هذا كله.. لن أستطيع الاستمرار أكثر.

الشكوى نفسها، والوصف القاصر نفسه الذي لا يحمل في جوفه من هول الواقع شيئًا، واقعي أنا. صرتُ على يقين أن أحدًا منا غير حقيقي، إما أنا وإما العالم حولي. هناك شيء ما خاطئ في برمجة جهازي الإدراكي اللعين، أو ربما الأمر أكبر من هذا. ربما لست «روبوت» مثل الجالسين في الخارج. هؤلاء سيتمكن المبرمج الماهر الشهير من إصلاحهم. ربما أنا «زومبي»، كنت حيَّةً يومًا ما في الماضي. كنت جزءًا من واقع الأحياء حينها. أراه وأحسه وأدركه كالبشر، أو حتى كالروبوتات السليمة، لكن لا، لقد متُّ حتمًا يومًا ما، وعاد جسدي المفرغ من الروح والبصر إلى حيث لم يعد ينتمي.

تقيأتُ الكلام ذاته على طاولة المبرمج، وتقيأ هو الآخر الكلمات ذاتها عن أن اضطراب تبدُّد الواقع الأولي الذي أعانيه هو اضطراب مزمن، لكن يمكن التعايش معه بكثير من الصبر والجهد والعقاقير وجلسات الهراء النفسي.. حديث لطيف يشبه كلام الجدات عن جمال الحياة على الرغم من صعوبتها، وضرورة التحلي بالصبر والرضا.

أنا أعلم هذا كله.. أعلمه يقينًا، ويمكنني أن أحدِّث نفسي في المرآة بالحديث ذاته أو أفضل..

لكنني أتبخَّر في تلك اللحظة.. أتبخَّر هنا والآن.. وأحتاج إلى سطح صلب ألمسه لأتكاثف وأعود إلى أرض الواقع من جديد..

الآن.. الآن..

قبل أن أنفد..

اختلط قيؤه بقيئي على «الروشتة». كتب فيها بعض أسماء الدواء الجديدة مع بعض من الأخرى القديمة، ثم ناولني إياها مبتسمًا. مددتُ يدي وأخذتها، ثم أمعنت النظر في كف يدي وتساءلت:

ـ ما هذا الجسم الغريب؟ ولمن هو؟!

لم أفكر كثيرًا في المكان الذي سنقضي فيه ليلتنا. انطلقتُ نحو مقبرتنا في البساتين. كان مفتاح الباب موجودًا في سلسلة مفاتيح أمي لحسن الحظ، فدلف كلانا، ثم أغلقت خلفنا البوابة الحديدية الكبيرة.

جلس في ركن بعيد وجلستُ في الركن المقابل له تمامًا. شيء ما في أرض هذا المكان يحتضنني. هذا التراب يحمل في بطنه بعضًا من دمائي وشعري وجلدي، رسومي وصوري وصرخاتي ودموعي وذكرياتي. يحمل عظام أجدادي وبقاياهم. تُرى، ما بقاياهم؟ هل يخلف الموتى رفاتهم فقط في عالمنا ويحملون كل شيء آخر إلى الجهة الأخرى؟ هل نرث منهم الثروات والديون فقط؟ لا.. نحن نرث ما هو أهم وأخطر.. جيناتهم..

تلك الترجمة البيولوجية لتاريخ العالم وساكنيه. هذا التدوين الدقيق المشفر لكل قواعد بيانات العقول السابقة. شيء مرعب حقًّا أن نُخلق بكل هذا الحمل على أكتافنا، وكأنَّ كلًّا منا «سيزيف» يحمل الأرض وتاريخها فوق كتفيه، ويحاول الصعود بها مبتعدًا عن الهاوية.

رأسك ترعة من الدماء..
تتجمع على ضفافها قطعان وقطعان..
من ظلال الموتى..
يشربونك لكي يحيوا..
يصيح الموتى بداخلك:
لا تمُت..
كي لا نموت!

نيكوس كازانتزاكيس

* * *

(٢١)

المجنون

ـ لماذا تقول إني حزينة؟ أنت لا تعرفني.

ـ أنا لا أعرفك.. لكني أعرف الحزن!

صمتت بعدها وأطالت الصمت، في حين نظر هو مباشرة في عينيها وأطال النظر. هي تلك النظرة التي يلين لها القلب في أكثر لحظاته قسوة، وحينما شعرت بأن الطريق المستقيم الذي كانت تسلكه نحو طريدتها صار فجأة متعرجًا، طرأت على بالها فكرة مرعبة..

ترى.. هل الجنون مُعدٍ؟

ـ ما هذا المكان؟ وأين البقية؟

ـ لم يتبقَّ سواي في المستعمرة. أنا الإنسان الأخير على ما أعتقد.. أما بالنسبة للمكان، فالأمر لا يمكن أن يُختصر في حديث قصير بين غريبين.

نظرت إلى صديقها تتلمَّس منه مساعدةً ما لمواصلة الحديث، أو لمواصلة الخطة المُعَدَّة مسبقًا، لكنه حدجها بالنظرة الحائرة نفسها. لم تعرف ماذا يمكن أن تفعل بعدُ، لكن ولسبب ما، كانت متأكدة من ضرورة إبقاء السكين في حقيبتها المغلقة.. إلى حين.

ـ حسنًا.. يمكنك أن تخبرني مَن أنت حتى لا تصير غريبًا.. ما اسمك؟

ـ اسمي؟ لم يسألني أحدٌ عنه منذ سنوات. أظن أني نسيته، ماذا عنكما؟ أخبراني عن اسميكما.

عادا ليتبادلا من جديد النظرة الحائرة ذاتها. لقد عرفا عن بعض كل شيء، عدا الأسماء.

قالت بعد لحظات من الصمت:

ـ في مدينتي لا نملك أسماء. نتحدَّث مع بعضنا البعض في أضيق الحدود، وكل تلك الأحاديث بلا استثناء تكون عن البضائع. نحن مجرد أجساد ميتة تستهلك عددًا لا نهائيًا من المشتريات، ولكل تلك المشتريات أسماء، أما نحن فلا.

أشار الرجل إلى صديقها المعدني وسأله:

ـ ماذا عنك؟

ـ أنا؟ هل تسأل حقًا عن اسمي؟

ـ أجل.

ـ أنا «روبوت».. و«الروبوتات» لا أسماء لها. لكل منا رقم وشريحة تعريف تتم قراءتها من قِبَل أجهزة الحرس المعدني، وحتى الأرقام،

لا تشبه الأسماء في شيء. هي مجرد وسيلة للحصر والإحصاء، لمعرفة تعداد سكان الأرض ومدى مناسبة هذا التعداد للمساحة والموارد المتاحة. لقد كانت الأسماء موجودة في الزمن القديم للتمييز بين الناس لأنهم مختلفون، أما «الروبوتات» فقد قضوا على الفرادة لتحقيق الاستقرار، ولهذا لم يحتاجوا يومًا إلى الأسماء.

- لكنك مختلف بالفعل.

- لست مختلفًا.. أنا معطوب.

ابتسم الرجل بود وهو يخاطبهما معًا:

- أنا أيضًا معطوب.. أعتقد أن ثلاثتنا كذلك. ربما لسنا غرباء إذًا، نحن متشابهون.

- لكننا لسنا مثلك.

قالت.

- لماذا يا صغيرة؟

- أنا لست صغيرة.

- أظن أن حياتكِ التي تتذكرينها أقصر من حياتي التي أتذكرها، ما يمنحني الحق في نعتك بالصغيرة.. المهم.. لماذا لست مثلكما؟

- أنت تملك شيئًا يمكننا أن نفعل أي شيء لنقتنيه.

- ما هو؟

- الروح.

- الروح.. يا الله! لقد علمت أنكما لم تأتيا إلى هنا صدفة. هل تبحثين عن روح؟ لقد أوصلكِ الله إلى المكان المناسب، أو ربما المكان الوحيد.. انظري حولك يا صغيرتي.. أنتِ تقفين في هذه اللحظة تمامًا في قلب حديقة الأرواح.. لقد زرعتها جميعًا وحدي، أترين؟

* * *

في مدينة الموتى توجد الكثير من المزارع لتسمين الحيوانات المختلفة التي يتغذَّى عليها الأموات. لقد رأت بعضها عددًا من المرات، ورأت كذلك كثيرًا من الحدائق في أفلام الأحياء التي شاهدت منها الآلاف. تجمّع في رأسها عددٌ لا نهائي من أشكال النباتات والطيور وتصميمات الحدائق، وجاءت جميعها لا تمت بأدنى صلة لكل ما تراه حولها. هذا جمال فوق أرضي. كادت تجزم أنها أبصرت هناك ألوانًا لم ترَها من قبلُ. ليست درجات جديدة لألوان معروفة، بل هي خارجة تمامًا عن مدى طيف الألوان الأرضية، وعلى الرغم من المساحة الشاسعة، كان لكل زهرة شكل ولون ورائحة مختلفة عن المجاورة لها. يمكن أن تنبثق من كلٍّ منهم قصيدة عذبة وفريدة. ربما تقدر تلك النباتات العجيبة أن تثمر كلمات جديدة تشبهها، لم تكُن موجودة في معجمنا البشري من قبل. ربما تتفتق القصائد عن أجنحة وترفرف. لِمَ لا؟ فها هي الطيور والفراشات منثورة حولهم في الهواء، لا يشبه أحد منها الآخر كذلك، لا في اللون ولا في الحجم ولا في الصوت. ربما تلك هي القصائد التي ولدتها الزهور، هكذا فكرت.

كان بعضها ملونًا، وبعضها مضيئًا، وبعضها شفافًا، وبعضها كالمرايا

يعكس كل ما يمر أمامه. كذبت نفسها حينما رأت أحدها يخرج من التراب ويحلق في الهواء...

كيف؟

لكنها آثرت الصمت على أي كلمة يمكن أن تُقال؛ فتلك الأصوات شديدة التباين التي تخرج من حناجر الطيور بديعة بشكل عجيب، وكأنها «أوركسترا» كاملة تم تدريبها قرونًا، حتى تتمكَّن من التناغم بتلك الدقة والعذوبة، أو تراهم يتكلمون مع بعضهم البعض وهذا صوت حديثهم؟ تُرى عمَّ يتحدثون؟ ما الذي يمكن أن يُصدِر الكلامُ عنه تلك الموسيقى كلها؟

ـ الله.

قالها الرجل فجأة بغير سياق، فرمقَتْه بدهشة دون أن تنبس، ثم رددت الكلمة في صدرها على مهل وكأنها تتذوق طعمًا ما للمرة الأولى.

كان المكان فسيحًا، يمكن رؤية الأسوار التي تحده بصعوبة، وعلى الرغم من وجودها في مرمى البصر، فإن كثرة التفاصيل الفريدة في كل موضع قدم تجعل الحديقة تبدو أكبر من حجمها الحقيقي بدرجة لا تُصدَّق.

ـ يمكنني أن أتعرَّف إلى هذا المكان في ألف عام.

قال الروبوت، فأكملت هي:

ـ أظن أني أستطيع العيش هنا ألف عام.. لكن...

ـ لكن ماذا؟

قال المجنون.

ـ هذا سؤال لا يمكنك أن تتحمل إجابته.. أنت بالذات.

ـ أنا الإنسان الأخير في مستعمرة المجانين الأرضية. لقد تحملتُ كل ما لا يمكن حتى أن يخطر لكِ على بال. صدِّقيني يا صغيرة، لقد عشتُ أعوام الحرب كاملة، وهو أمر جلل لو تعلمين.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ بعد الحرب؟

ـ أجل.

ـ أتممت إطفاء الجحيم.. وبدأت في بناء الجنة.

ـ لا أفهم.

ـ لقد زرعت القتلى.. كل القتلى.. المجانين والمجرمين والضحايا. جمعتُ كل الجثث، كل الرفات والبقايا، كل رماد المحترقين، كل رسائلهم غير المرسلة، وكل أشيائهم الصغيرة التي ظلوا محتفظين بها تحت أسرَّتهم المُدَمَّاة. جمعت كل شيء وغرسته في الطين. كان لا بُدَّ لكل تلك الأرواح المُهدَرة أن تتعرَّى من أجسادها وأمخاخها القديمة، ثم تعود مرة أخرى بعد أن تتطهر في برزخ الموت. انظرا حولكما، لقد عادوا جميعًا. كل روح تعذبت وقضى عليها القتل، إما بالتعرض له أو بممارسته، كلهم تطهَّروا وعادوا من جديد. انظرا.. لا تتوقفا عن النظر، فبكل لمحة ستبصران روحًا لم تبصراها في اللمحة السابقة.

وبالفعل لم يتمكنا من التوقُّف عن التحديق، وعن الاستمتاع، وعن

الدهشة. لطالما كانت الدهشة زائرًا لا يطيل البقاء. لحظة خاطفة أو بضع لحظات تكفي لإيقاظ العقل والقلب كالصدمة الكهربية في صدور الموشكين على الموت. مذاق ممتع سرعان ما يزول، لكن الدهشة التي اعترتهما في تلك الحديقة لم تغادر، والمتعة لم تزل.

ـ أخبراني الآن.. ما الذي جاء بكما إلى المستعمرة المنسية؟

كانت تتابع بنظرها عصفورًا أزرقَ برأس شفاف، يظهر بداخله مخ صغير على شكل ماسة مضيئة، وعلى الرغم من ضآلة وجهه، فإنها رأت بوضوح عينيه البشريتين المنمنمتين. كان يصدح بنغمته المغزولة في نسيج اللحن «الأوركسترالي» وهو يحدِّق في عينيها مباشرة. شعرت برغبة عارمة في البكاء، لماذا؟ لم تعرف..

لم تُشِح بنظرها عنه حينما أجابت عن سؤال الرجل دون تفكير:

ـ لقد جئنا لنحصل على روح.. وبما أنك الأخير، فأظن أننا ينبغي أن نحصل على روحك أنت.

ـ وكيف هذا؟

نزعت عينيها بصعوبة من فوق العصفور واقتربت من الرجل وهي تردف:

ـ كان من المفترض أن... أن نقتلك.

ـ وكيف ستحصلان على روحي وقتها؟

ـ سنأكل قلبك.

قطَّب الرجل جبينه وابتسم في اللحظة ذاتها. لمعت عينه بدمعة لم

فهم هي معناها، وقال:

ـ ألهذه الدرجة تشعرين بالخواء؟

لم تُجِب.. لم يكُن سؤالًا من النوع الذي يتطلَّب إجابة..

ـ أتعلمين يا صغيرة؟ يمكنني أن أمنحك قلبي لتأكليه فنموت معًا، ويمكنك أن تمنحيني قلبك لأزرعه فنحيا سويا!

* * *

وقفت بجوار صديقها المعدني تحت الشجرة العملاقة المنتصبة في قلب الحديقة. كان حجمها وعلوها وكثافة أغصانها كفيلة بإظلام كل المساحة الكبيرة تحتها، لكن الزهور والثمار التي طرَّزت الفروع كانت مضيئة. آلاف من الشموس الفضية الصغيرة نُثِرَت فوقها فأضاءت كشجرة عيد ميلاد سحرية.

وبعد عناق طويل، وحديث قصير، لم يتبقَّ سوى أن يفعل ما لم تستطِع هي فعله. مد أصابعه تجاهها وأغمض جفنيها، أو ما تبقى منهما. قرَّب رأسها إليه وقبَّلها بين عينيها المغمضتين، وفي اللحظة ذاتها، أنزل كفه على جسدها وغرسها في صدرها الهش، إلى أن تأكد من أنه يقبض تمامًا على قلبها. انتزعه برفق، فشهقت وبكت. ضمها إليه بذراعه الأخرى وشد القلب بقوة حتى انفصل عنها تمامًا. رفعه أمام وجهيهما. كان منتنًا يعج بالديدان واليرقات السوداء، متآكلًا لا شكل له. لم تعرف حينها هل كانت تبكي حزنًا لفقدانه، أم فرحًا للتخلُّص منه، أم رهبة من المجهول الآتي.

سلم القلب للرجل، ثم جلس أرضًا وأراح جسدها على فخذيه.

احتضنها بقوة، وراحا يراقبانه وهو يحفر في الأرض تحت الشجرة العتيقة. يحيط به عدد من الكائنات الصغيرة التي تشبه الأحصنة وتشبه الغزلان، لكنها ليست أيًا منهما. وضع القلب في حفرة عميقة ثم أهال فوقه التراب. أخبرهما أن الأمر سيستغرق عدة أيام ليتم، وأنهما يستطيعان الآن المغادرة أو البقاء، أيًا ما كان ما يريحهما. كان يمسِّد رأسها وينتظر أن تقرر هي، وعندما تشبَّثت بكفه وضمته إلى صدرها المفتوح وهي تحدِّق في موضع الدفن، أدرك أنها تود البقاء.

ساعات طويلة مرت وهو يقص ويغني ويدندن، يربت ويضم ويُطمئن، وهي.. تبكي، وتذوي.. وتموت..

وبعد ثلاثة أيام وبضع ساعات، لاحظا أن اهتزازًا ما يحدث هناك في الطين. التربة تتحرك ببطء والتراب ينزاح عن شيء ما يحاول الخروج. كانت نبتة زرقاء صغيرة تكافح للظهور، وعندما نجحت في ذلك، لم تفتأ تكبر وتكبر حتى صارت زنبقة ضخمة بحجم الرأس تقريبًا، وما هي إلا دقائق حتى بدأت الزنبقة تتقلَّص وترتخي ثم تتقلَّص وترتخي، مرات ومرات. كان بداخلها شيء يتلوى، شيء يحاول أن يُولَد!

كان الأمرُ جللًا. راقبوا هذه الرحم النباتية الزرقاء تتفتَّح شيئًا فشيئًا، إلى أن ظهر ما بداخلها. لم يكُن عصفورًا كما هُيِّئ لهما للوهلة الأولى، بل كان غرابٌ، غرابًا أزرق لامعًا. حدَّقت فيه بخشوع وضحكت، ولو كان «الروبوت» يستطيع الضحك لفعل، ولو كان يستطيع البكاء لفعل كذلك، لكنه لا يملك أن يقوم بأيٍّ منهما، فاكتفى بالمسح على وجهها وتحسس ابتسامتها هي. تلفَّت الغراب حوله وقفز قفزتين ليعدل من وضعه الجنيني ويتجهز للطيران، وفي تلك اللحظة، لاحظ كلاهما

التفاصيل الصغيرة لهذا الكائن البديع. كان غرابًا أزرق، ريشه يلمع كأغصان الشجرة العملاقة التي وُلد في كنفها، له عينان بشريتان، وصدر شفاف تمامًا كقطرة ندى، وبداخله، تمامًا في موضع القلب، زهرة بيضاء صغيرة.. تنبض.

- هذا أجمل شيء رأيته في حياتي.

قال دون أن يزيح ناظريه من على الطائر الوليد، الذي حلَّق للتوِّ في سماء الحديقة، ثم أردف:

- ربما لا ينبغي لنا أن نكون زهورًا، ربما يمكننا أن نكون الوحل الذي ينبت الزهور.

- ....

- أنا أحبكِ.

- ....

- هل ما زلتِ معي؟

- ....

* * *

(٢٢)

«لبنى»

ـ هل ما زلتِ معي؟

أيقظتني الكلمات. قمتُ من رقدتي بقلب مضطرب حد الوجع. شعرت بنبضي يدق كالطبل فأمسكت صدري وضغطت عليه وأنا أستعيد وعيي بما حولي تدريجيًا. لقد كان المجذوب جالسًا جواري، ينظر إليَّ تارة، ويواصل الكتابة تارة أخرى. يبدو أنه استنفد كل دفاتره، التي هي دفاتري، فقرر أخذ «روشتة» الطبيب ليكمل عليها ملحمته الهذائية. فلتذهب وصفة الدواء للجحيم.. لا يهم، لكن هل كان يتكلم حقًا؟ لقد كان صوتًا خارج رأسي، سمعته بأذني، أو لا، لا أعلم..

على كل حال.. أجل، أنا هنا.. ما زلت معك.

ركبنا السيارة متجاهلَين فراغ بطوننا، وتوجهنا مباشرة إلى ميدان التحرير لمقابلة «ميرنا». كانت المرة الأولى التي أزور فيها الميدان منذ

بدء الثورة. أحكمت قبضتي على كف يده وسرنا بين الجموع. كانوا مختلفين في كل شيء: مستوياتهم الاجتماعية، أعمارهم، جنسهم، طريقتهم في الانخراط في هذا الحدث العظيم كما يقولون، لكن شيئًا واحد كان يجمعهم بلا استثناء: الحياة. هم أحياء لدرجة مثيرة للحسد، يفيضون طاقةً وحماسةً وثقة. ذكروني بـ«ميرنا». ينتمون إلى الفصيلة نفسها، فصيلة الطيور الجارحة، أما أنا...

شيئا فشيئًا، بدأ الزحام يثير أعصابي، بعد أن كان يثير فضولي. الأعداد في تزايد مستمر والأصوات كذلك. صرت أشق طريقي بينهم أوتوماتيكيًا دون وعي حقيقي بما حولي. أحسست أن كل ما يحيط بي يتحوَّل إلى عناصر منفردة، متجاورة وغير مترابطة.. أفواه، جباه، أنوف، أعمدة إنارة، سحاب، لافتات ملونة، بقع لونية كثيرة موزعة هنا وهناك، أضواء تومض وأجسام بلا معالم واضحة تتحرك.. كلٌّ منها مستقل تمامًا عمّا سواه.. صار الواقع فجأة كوُرَيقات شجر ساقطة، تطفو على سطح بحيرة، ومعها تطفو أفكاري قليلًا ثم تغرق، وتذوب في ظلام القاع، لأصبح أنا الأخرى مجموعة من البيانات غير المصنفة، غير المترابطة، وُرَيقة ذابلة تطفو على سطح الماء.

للفراغ فم مفتوح مخيف، يبتلع واقعي وأجزائي بنهمٍ كثقب أسود، وأنا كخيطٍ من نور بين كفي الظلام، ضعيفة وهشة، جلدي بمسام مفتوحة يتشرب الظلام، فيسري بداخله ويمحو روحه المضيئة.

أنا أختفي شيئًا فشيئًا..

جزءًا جزءًا..

على مرأى ومسمع من الجميع، لكن أحدًا لا يرى معركتي مع الظلام الأبيض. فقط يشيرون إلى بعضي المتبقي، ويطالبونه بالاكتمال بكل فجاجة وحمق، وكأني أملك أن أمدَّ يدي في جوف العدم لأستعيد أجزائي، وأرتقها فوق وجهي من جديد. هم لا يسمعون صخب المجزرة خلف جدار الصمت المصمت. لا يبصرون رحلة صعودي نحو الأعلى، نحو اللاشيء التام، وأنا.. ألوّح لهم ولا أنبس..

فالمسافة بيننا أكبر من أن يقطعها صوت.. أو أن تجتازها كلمات.

ابتلعني الزحامُ تمامًا. صرت أفتح عينيَّ بصعوبة. أحاول الاستيقاظ، أحاول الخروج من هذا الهلام الشفاف الذي أخوض فيه، لكنني لم أستطِع الخروج منه بكامل وعيي. حرَّكت كفي اليمنى، ثم اليسرى، فوجدتهما فارغتين. درت حول نفسي مرة بعد مرة بعد مرة، أبحث بين الوجوه المطموسة عن هذا الرأس الأشعث والعينين النافذتين، لكني لم أجده. شعرت بالذُّعر، لكن ما أثار استغرابي أني لم أكُن وحدي المذعورة، بل الجميع كانوا كذلك، هل هو كابوس إذًا؟ هل هي عدوى؟

ترى.. هل الجنون مُعدٍ؟!

تعلقت بذراع أحدهم. لم أميِّز إن كان رجلًا أم امرأة. سألت عمّا يحدث، ورحت بعدها أتنقَّل من ذراع لأخرى ومن إجابة لأخرى. صرت كالعميان أتشبث بأي شيء صلب يمكن أن ينتزعني من لزوجة الوعي التي تغمرني..

فهمت من كلامهم أن عشرات من الجمال والأحصنة والبغال اقتحمت الميدان. يمسك الخيالة فوقهم بعصي وسيوف كبيرة، يلوحون

ـها في وجوه المتظاهرين، وخلفهم مظاهرة لمؤيدي الرئيس ما لبثت أن تحولت إلى مدفع يرش الجميع بالحجارة وكسر السيراميك وزجاجات المولوتوف. انتشر الذعر بين الجميع، كل يركض في اتجاه. البعض ينقضُّ على الجمال، والبعض يفرُّ منها.. وبينهم، سقط العالم بأكمله.. ودُهس تحت أقدام البغال.

(٢٣)

المجنون

ما الذي أتى بي إلى هنا؟ لا أذكر.

هل هي ساحة حرب؟ الجمال والخيول تدهس الناس، والحجارة تنهال على رؤوسنا من كل مكان. تذكرت «أوريا» وحكاياته عن حروب «النياندرتال» الأخيرة.. هل أخبرتك بها من قبل؟

لم تكُن «آنيا» والفتاة الميتة هما الوحيدتين اللتين بُعث صوتُهما عبر الزمن والمسافات وصولًا إلى عقلي؛ فهناك غيرهما الكثير. بعضهم لم أتمكن من استيضاح رسائلهم المشوشة، وعلى العكس كانت بعض الرسائل الأخرى شديدة الوضوح والاتساق مع رسائل «آنيا»، على الرغم من الفارق الزمني الكبير بينها. فإن كانت هي قد حدثتني عن بداية المأساة على كواكب العقلاء، وبداية الحياة على أرضنا السابعة، فـ«أوريا» حدثني عن أعوام تلت ذلك بآلاف السنين.

لم يولد «أوريا» في أراضي العقلاء. وُلد في جزيرة «مو» وعاش فيها طول حياته. شهد من الهول ما لم تشهده «آنيا»؛ فالمجانين يزدادون جنونًا وتوحشًا يومًا بعد يوم، لدرجة أنهم استعبدوا «النياندرتال» وأخضعوهم لإمرتهم. لم تكُن لديهم لغة تختلف كثيرًا عن لغة الحيوان التي تفي بأبسط غايات التواصل بين كائنين، في حين كانت لغة المجانين تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، بعد أن طُمست تمامًا الرسائل التخاطرية التي كان يتواصل بها أجدادهم العقلاء، وصار اللسان هو ذراع العقل الوحيدة القادرة على نقل ما به من أفكار مظلمة إلى عقل آخر، وقد كان هذا سببًا من أسباب كثيرة تمكنوا بها من إخضاع الجنس الآخر والتآمر عليه وقهره.

كان المجانين صيادين ماهرين، مغتصبين محترفين، لكنهم لم يتمكنوا، لأعوام طويلة، من التمتّع بمهارات اجتماعية بسيطة، كالتجمُّع في مجموعات وإن كانت صغيرة. أثار الأمر فضوله بادئ الأمر، لماذا تهرب نساء المجانين إلى أماكن وجود «النياندرتال»؟ وما الذي من الممكن أن يدفع أحدًا منهن إلى التزاوج مع هؤلاء الوحوش الأرضية؟ ثم بمرور الوقت، أدرك حقيقة الأمر.. الوحوش الأرضية لم تكُن وحوشًا، كانت كائنات قوية تحارب في سبيل البقاء ليس أكثر، لا من أجل المتعة أو الشر، ولا بدافع من أنانية أو حماقة.. كانوا فقط يسخرون قوتهم في الحصول على الطعام والمسكن الآمن لهم ولأسرهم، وهذا بالضبط ما كان يفتقر إليه ذكور المجانين، الذين لم يكونوا قد ارتقوا بعدُ إلى مرحلة تكوين أسرة. كانوا فرادى في مطعمهم ومسكنهم واغتصابهم للنساء، ولهذا هربت نساؤهم إلى كنف الوحوش الذين يوفروا لهن المأكل والمسكن والحماية،

وقد كان هذا مبتدأ لكراهية بدأت وتزايدت يومًا بعد يوم بين الجنسين.

هل تساءلتِ يومًا عن سبب حملنا جينات «النياندرتال» في جينومنا البشري؟

هذا هو السبب!

بعدها قامت الحرب الكبرى التي استمرت لمئات الأعوام، والتي راح ضحيتها الملايين من الفريقين. وبعد مئات الآلاف من السنين، تمكَّن مكرُ المجانين من الانتصار على قوة «النياندرتال»، بعد أعوام طويلة من استعبادهم وتسخيرهم للخدمة والصيد والتسلية والتعذيب. بعد أن سلخوهم واستخدموا جلودهم للتدفئة، وعلَّقوهم عرايا على جذوع الأشجار لاستدراج الوحوش المفترسة. بعد أن جلدوا ظهورهم ليواصلوا خدمتهم، وأكلوا أكبادهم إذا اشتد عليهم الجوع والقحط، إلى أن آل الأمر إلى نهاية محتومة، واختفى جنسهم من الوجود.

وبقيت أسطورة «النياندرتال» الأخير تؤرقهم وتشحذ غرائز القتل والانتقام فيهم. هل بالفعل يوجد هذا «النياندرتال» الأخير في مكانٍ ما مجهول في عمق الأحراش أو الأدغال المظلمة؟ تساءلوا بلؤم وتحفز، إلى أن حل ذلك اليوم المشؤوم، الذي كان خاتمةً لمذبحةٍ استمرت مئات الآلاف من السنين، وبدايةً لمذبحةٍ جديدة ستستمر لملايين الأعوام اللاحقة.

* * *

ربما كانت الفتاة هي السبب فيما حدث، وربما لا. عندما هربت من رجلها وتوغَّلت في الغابات المظلمة بحثًا عن أي مكان بعيدًا عن المجانين الذين استنزفوها في كل شيء، واستباحوا جسدها وروحها منذ طفولتها. لم تكُن قد رأت «نياندرتال» من قبلُ، ولم تملك رفاهية الإيمان بوجوده من عدمه؛ فحياتها كانت سلسلة متواصلة من العذابات، من الألم والاغتصاب والمرض والجوع، من الحزن والغضب والكراهية. كان هروبها نتيجة محتومة لكل ما مرت به من بلاء، بلاء يمر به الكثير من الناس ولا يملكون جرأة التمرد عليه، لكنها تمردت عليه بالفعل، وقررت الخروج من شرنقة الخوف والتحليق بأجنحة الغضب إلى أغوار المجهول.. وفي وسط هذا المجهول، قابلته.. ذلك الوحش الأخير القابع هناك خلف كل ما تعرف.

كان وحيدًا وكانت وحيدة، كان حزينًا وكانت أشد حزنًا، إلا أن أكثر ما جمعهما كان الغضب والنفور من ذاك العالم المجنون الغارق في الدماء. وعلى عكس كل ما عهدت من ذكور المجانين، وفَّر لها كهفًا آمنًا وكثيرًا من الطعام والشراب، وبمرور الوقت أدركت أنه ليس وحشًا. رأت خلف ذلك الجسد الدميم روحًا طيبة وودودة، تتقاسم معها كل ما تملك بمحبة خالصة، فلم تملك ما تقاسمه إياه بدورها سوى قلبها. أحبته كما فعلت كثيرات من بنات جنسها مع كثير من أبناء جنسه، وعاشا معًا في معزل عن معركة العالم القبيح، الدائرة بلا توقف في كل مكان خارج قوقعتهما الآمنة.

لكن الحكايات لا تنتهي بتلك الطريقة إن كان مكانها الأرض السابعة. عثر المجانين على مكمنهما، وفهموا ما كان يدور فيه. كانت جريمة

لا تُغتفر تخالف كل القوانين غير المكتوبة، والمعاهدات غير المصرَّح بها التي تحكم حياتهم. ولأن لكل جريمة عقابًا، كان لا بُدَّ من أن تنال الخائنة عقابًا تستحقه.

تجمَّع منهم الكثير.. البعض يعرف الحكاية والبعض لا يعرف شيئًا سوى أن هناك فيضًا من الدماء سيسيل، وهو حدث مثير لا ينبغي تفويته.. جيء بجيفة حصان لم تتحلَّل بعدُ.. شقوا بطنها وأفرغوه من أحشائه، ثم ربطوا الفتاة برباط محكم وأقحموا جسدها في بطن الحصان. ربطوه حتى صار وعاءً مغلقًا على الفتاة كلها، عدا رأسها الذي ظل بالخارج. كانت تصرخ وتستغيث وتتألَّم وتفزع، وسط عيون محدقة وابتسامات ماكرة. بقيت هناك لأيام طوال، يتحلل جسدها بداخل جسد الحصان، وتأكلهما الديدان معًا وهي بعدُ حية لم تفارقها الروح.. وهو، زوجها، أو الوحش الأخير كما كانوا يرونه، كان مقيَّدًا إلى جذع شجرة، يشهد كل ما يحدث لحبيبته الصغيرة، من يوم دفنها حية في الجيفة، إلى يوم موتها بداخلها. وحينما زحف التحلُّل والنتن من جسدها إلى رأسها، وانتفخ وجهها وتآكل وفاحت رائحته في أرجاء المكان، بكى للمرة الأولى في حياته.. لم يعرف أصلًا من قبلُ ما البكاء، الآن فقط خبره وطفحت من عينيه الدموع كالبركان.

صرخ وزأر وصارع قيوده ببسالة، لكن قوته لم تكفِ ليتحرر منها. لقد شهد الجريمة كاملةً من البداية إلى النهاية، وعلى الرغم من أنهم جوعوه ولم يسمحوا له بتناول الطعام ولا شرب المياه، فإنه تمكن من البقاء على قيد الحياة حتى غادرتها رفيقته بأكثر الطرق فظاعة. وعندما حدث هذا كان قد وصل به الإنهاك إلى آخره، لكنه ظل يقاومهم بكل

ما أوتي من جلد، عندما أمسكوا بأسلحتهم الحادة، وبدؤوا في سلخ جلده. لم يفقد الوعي عندما شقوا بطنه وراحوا يجتثون أعضاءه الواحد بعد الآخر، لكنه في النهاية رحل. مات قبل أن يرى هذا الرجل يغرس أسنانه في قلبه الذي لم يكُن قد توقف عن النبضِ بعدُ، قبل أن يبدأ عراكًا جديدًا بينه وبين المتجمعين حوله ليحصل كل منهم على نصيبه من القلب الدافئ ويأكله.

❋ ❋ ❋

أعود وأتساءل: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أين ذهبت هي؟ ولماذا تركتني وسط هذه المعركة الغريبة؟

أعود وأتذكَّر ذلك اليوم الذي فررت فيه من العباسية، عندما أدركت أن العنبر الذي أسكنه لم يعد كافيًا لمواصلة رحلتي. كنت أشعر أن المكان ينكمش يومًا بعد يوم. الجدران تزداد اقترابًا من فراشي، وتزداد الأرض ارتفاعًا، والسقف يستمر في الهبوط فوقي.. وفي أثناء تنزُّهي في الحديقة، لا أرى منها سوى نور ساطع مُؤذٍ، وفوضى لونية متناثرة هنا وهناك، تثير أعصابي وتشتت تفكيري.. أحاول أن أتذكَّر كيف كان يبدو العالم قبل أن أُصاب بهذا المرض اللعين، فلا أذكر سوى أنه كان مختلفًا عن هذا الذي أبصره الآن، فما أراه ليس عالمًا، هو أقرب إلى الوهم، ووسط هذا الوهم، تفيض الأفكار داخل رأسي، وتبني عالمًا آخر، أكثر غنى ورحابة، بل وأكثر وضوحًا. أكاد أراه مرأى العين، في حين يستمر العالم أمام عينيَّ الحقيقيتين بالتلاشي والانطماس، وبمرور الوقت تزداد الهوة اتساعًا بين العالمين، إلى أن وصلت إلى مرحلة الاختيار..

هل أبقى هاهنا، أم أمتطي ما تبقى من عقلي وأرحل؟

الأصوات تثرثر في عقلي:

-ها أنت الآن وسط حرب جديدة.. هل تبصر الرصاصات القديمة التي انطلقت من آلاف السنين وهي تخترق أجسادكم في تلك اللحظة؟

هل تشعر بأرواح القتلى تحل في أجساد الأحياء لتقتل من جديد؟

أسمعه وأفزع.. أحاول أن أشقَّ طريقًا آمنًا بعيدًا عن معركتهم، لكن ماذا عن معركتي أنا مع الجنون؟ لقد صار الطريق مظلمًا بلا علامات ولا دليل.. ينبغي عليَّ أن أضع لنفسي علامة واحدة على الأقل تخبرني أني لم أفقد جل عقلي بعدُ، وتلك العلامة هي الكتابة.. الكلمات هي اللبنات التي أصنع بها طريقي الذي أركض فوقه، الطريق الذي يطفو فوق سطح العدم. صار لزامًا عليَّ أن أضع اللبنات بسرعة تفوق سرعة تحلل إدراكي المخيفة.. فإن تأخرت قليلًا، سوف تركض قدماي فوق الفراغ، وسأسقط فيه وأفنى. لقد أوشكت رحلة صعودي على الانتهاء.. صرتُ أعلم هذا يقينًا، والخوف الذي لم يعرف طريقه إلى قلبي قبلًا، تغلغل في روحي الآن.

تُرى ماذا يوجد على الجانب الآخر؟ إلى أين تؤول الرحلة؟ هذا العالم مغلق، لا شيء يفنى فيه، ولا شيء يُستحدث من العدم..

أين إذًا تذهب عقول المجانين بعد أن تفلت من رؤوسهم؟

أتشبَّث بدفاتري بعد أن سقطت وسط الحشد. تدهس وجهي أقدامُ الناس والبغال، فأشعر بالخدر يزحف في جسدي. ترتخي ذراعاي شيئًا

فشيئًا من على الدفاتر، وأتذكَّر رغمًا عني تلك الذكرى اللعينة عن حربي السابقة التي خضتها منذ أعوام طوال، عندما دُفنت في حفرة واحدة مع رفاق كتيبتي في سيناء. نحن والفزع والألم والمهانة.. وفي جيب سترتي كانت تقبع تلك الورقة البيضاء التي حاولت أن أكتب فوق سطورها قصة كل شيء، لكن القصة أبت أن تُكتب حينها.

انتُزِعت من الحفرة بعدها بوقتٍ لم أتمكن من حسابه. بُعثت من الجحيم شخصًا آخر، يكاد لا يتذكر من حياته السابقة سوى الحفرة بما فيها من قتلى، والورقة الفارغة التي صارت هي الحياة ولا شيء سواها.. الورقة التي جذبت إليها وإليَّ كل تلك الأصوات العابرة للزمان والمكان، لكن القصة التي لطالما حاولت استحضارها لم تحضر في ثوب نعرفه.

عندما علَّمتني «آنيا» لغة العقلاء القدامى لأتمكَّن من فهم رسائلها، أخبرتني أن لهذا ثمنًا، هو أني سأفقد القدرة على التحدُّث بلغة مجانين الأرض السابعة إلى الأبد.. فلتُدهَس أوراقي إذًا تحت أقدام البغال..

فلن يفهم لغتنا أحد منهم أبدًا..

لن يفهموا..

(٢٤)

«لبنى»

لا أعرف ما القوة التي كانت تحرِّكني حينها..

ربما مخي، لكن بالتأكيد ليس عقلي..

كنت أسير وأركض وأسقط، ثم أقوم وأتقيأ وأصرخ وأركض وأسقط، وسط حشود مذعورة وغاضبة ومكلومة، كم دام هذا كله؟ لا أعرف.

أيقنتُ حينها أنني لن أجده، ولن أجد «ميرنا» كذلك. وجدت نفسي في لحظةٍ ما في المستشفى الميداني الذي جُمِع فيه المصابين. حشرت نفسي في الزحام أتفحص وجوه الملقَين أرضًا، وبعد بحث قصير.. رأيت شعرًا أشعثَ متربًا يظهر من تحت ملاءة مُدَمَّاة. أزحتها من فوقه بسرعة، فأبصرت وجهه بجبين مشقوق وعينين مغلقتين، وعلى صدره ما تبقى من دفاتره.

الآن أنا أرى كل شيء، حتى نفسي.. أراها تقترب من جثته.. تمد يدًا مرتعشة نحو وجهه وتفتح جفنيه، ثم تمد الأخرى وتحاول من جديد بعنف وإصرار.. تقترب من وجهه وتلصق جبهتها بجبهته مثبتة الجفنين بأصابعها حتى تظل مفتوحة.

الآن يلتفت إليها البعض ثم يسرعون نحوها ويجذبونها بعيدًا عنه.. لم تقاوم كثيرًا، فقط سحبت دفاتره وتملَّصت من الأذرع الكثيرة المتشبثة بها ثم ركضت مبتعدة عن هذا كله.

الآن تحوص في طرقات لم تعُد تميزها، بعينين مفتوحتين، وعقل فقد قدرته على الرؤية بشكل كامل.

الآن تقفز في أحد أتوبيسات النقل العام وتصرخ في وجه «الكمساري» حينما يطالبها بدفع الأجرة إلى أن يدفع عنها أحد الغرباء.

الآن تسلك طريقًا طويلًا وسط الضباب الشفاف اللعين الذي عزل عنها العالم تمامًا، وأحكم قبضته على عقلها ووجهها لتقترب شيئًا فشيئًا من حافة الاختناق.

الآن تصل إلى بيت الجمالية وتجري صعودًا على السلم إلى أن تصل إلى الشقة. تركل الباب بقوة وتضربه بكتفها بعنف إلى أن ينفتح. يطفح الظلام من الداخل طفحًا ويشدها إليه بقوة ألف ذراع.

الآن ينطفئ العالم بأكمله ويشيِّد العدمُ حولها عالمًا آخر.. يضمها الظلام إلى صدره.. تستشعر لحم جسده العضلي شديد الضخامة، وتحس بوجع ضغط أصابعه على ظهرها وذراعيها. يُحكم ذراعيه حولها ويدور

ويدور ويدور، إلى أن تتقيأ شيئًا ما بمذاقٍ لم تختبره من قبلُ قط، ويمتلئ فمها به لا بطعمه فقط!

الآن يضعها أرضًا.. يلف ذراعه اليسرى حول خصرها، ويمسك كفها بكفه اليمنى ويرقص.. يقودها في رقصة «فالس» على إيقاعٍ سريع للحن غير موجود، والإيقاع يزداد سرعة وعنفًا وجنونًا.

الآن تستسلم لخطوات رقصته.. تكاد تراه يبتسم كشيطان سعيد، وفي الوقت ذاته، تسمع صوت بكاء يصدر عنه، بأصوات أناس لا حصر لهم.

الآن يقبِّلها بشراسة، ويطفح فمه بين شفتيها بعضًا منه.

الآن تسقط أرضًا، وتشعر بجسده فوق جسدها، ثم داخل جسدها.

الآن يحرِّك جسمها من الداخل بقوته هو وإرادته هو.

الآن ينهض بها، ويركض بسرعة وعنف نحو الحائط فيصطدم رأسها به وينزف. يعود إلى الوراء ويكرر الأمر، مرة واثنتين وثلاثًا، إلى أن تتهشم جبهتها وتتفجر منها الدماء.

الآن تسقط أرضًا..

الآن..

تموت.

(٢٥)

«حسين»

لماذا لا نطير؟

هل لأننا فعلًا لا نستطيع، أم لأن أحدًا لم يعلِّمنا الطيران عندما كانت جلودنا طرية وقادرة على إنبات الأجنحة؟

لقد قضيتُ عشرات الأعوام أركض بجنون، لعلَّ الأرض تعفو عني وتطلق جاذبيتها اللعينة سراح أجنحتي، تلك التي تنمو بداخلي كالسرطان.. يمرضني وجودها ويعييني.. يتجاوز حجمُها حجمَ جسدي، وتتجاوز قوتُها قوتَه، وتتعاظم إرادتها وتمتلك زمام أمري فلا أقدر على الثبات في أرض واحدة.. ولهذا لا أكف عن الركض، في رحلة هروب منهكة من وحش مفترس، ربما لم أرَ وجهه بعدُ، إلا أني أعلم يقينًا أنه مفزع.

لقد رآه «سليم».. رآه بعينين عمياوين، وعقل مضطرب، وقلب خائر القوى، لكن.. ما نفعُ العيون المبصرة والعقول السليمة في رؤية

الظلام، ذلك الذي يَرَى ولا يُرَى؟! تلك موجودات لا يقدر على إدراكها سوى من فقدوا قدرتهم على إدراك العالم المنظور.

إنها تلك الحاسة الفريدة التي يمتلكها هؤلاء البؤساء.. حاسة الجنون.

مرت أعوام طويلة على لقائي الأخير بـ«سليم». حاولتُ الوصول إليه مرات لا حصر لها. في البداية عنَّفني عمُّه وطردني، وبعدها منعني الجيران، ثم الأطباء من رؤيته.. كان لا بُدَّ له أن يصدق عدم وجود كل ما رآه، ليتمكَّن من التعايُش مع ما يرونه هم. كان عليه أن يصدِّق أنه أعمى، ليصدقوا أنه ليس مجنونًا.. كان عليه أن يفقد إيمانه ليعيش في سلام.

لكنني لم أكفَّ عن محاولة الوصول إليه حتى بعد أن غادر المستشفى مع امرأةٍ قالوا إنه تزوجها. لم يعرف أحدٌ بعدها عنوانه، حتى الجيران. كتبتُ له مئات الرسائل وسلَّمتها الواحدة بعد الأخرى لجارته في الطابق الأرضي ببيت الجمالية، وفي كل مرة كانت تخبرني أن الرسالة السابقة ما زالت بحوزتها لأنه لم يظهر بعدُ، حتى إن أحدًا لم يعُد يجمع إيجار الشقق في العمارة، لكني لم أتوقف. كتبتُ له كل تفاصيل رحلتي التي خضتها وحيدًا بعد أن غادرتني «ندى»، ونبذني أهلي بالكامل.

حكيت له عن الصورة التي رسمها لـ«أم ندى» عندما علقَتْها على حائط غرفتها، وعن نظرتها الفرحة لها كل صباح قبل أن تنطلق في رحلاتها القصيرة معي. حكيت له قصص دفترها الصغير المزركش، التي كانت آخر واحدة فيها قصة العصفور الأزرق اللامع، الذي نبت من الوحل في رحم زهرة كبيرة، ثم طار في السماء قاصدًا النور.

ثم أخبرته في الرسالة التالية، عن اليوم الذي كنا نقرأ فيه رواية على سطح فلوكة، عندما قالت بصوتها المتعب الودود:

ـ يمكنني أن أقضي حياتي كلها هنا في هذا المكان.

ثم ماتت بعدها بأقل من ساعة.

* * *

قررَتْ أسرتي، بعد كثير من المداولة، منحي نصيبي من إرث أبي، فقط ليتخلصوا مني ولا يعود يربط بيننا أي رابط بعدها أبدًا. لقد أخبروني بهذا صراحة. قالوا إنني صرتُ فضيحةً مكتملةَ المعالم تمشي على قدمين، تشوه سمعة العائلة وسمعة أخواتي البنات أمام أزواجهن. قالوا إن ملابسي الرثة ومظهري غير المهندم لا يليق بهم، وإن انتقالي للعيش في فلوكة متحركة في النيل هو أكثر الأمور سخافة على الإطلاق. لقد صرتُ أملك كثيرًا من المال، لماذا إذًا لا أعيش حياة مستورة وطبيعية في شقة محترمة؟ كيف يمكن لشخص أصلًا أن يعيش حياة كاملة على سطح فلوكة حقيرة؟ كيف سيستحم مثلًا؟ كيف سيبدِّل ملابسه؟ كيف سيقضي ليالي الشتاء الممطرة قارسة البرودة؟ كيف يمكن لإنسان عاقل وثري أن يعيش بلا جدران؟!

يا إلهي! لو علموا كم أكره الجدران.. كم أختنق وأموت وأتحلل بين الجدران.. لو يعلمون ما يفعله بي عقلي حينما ينفرد بي في مكان مغلق.. كثيرًا ما فكرت في الرجل المظلم الذي أبصره «سليم». فكرتُ في أنه حتمًا يسكن الجدران. كدت أراه يرمقني ويبتسم وأنا حبيس تلك الزنزانة المغلقة. كانت نوبات الاكتئاب اللعين تداهمني بشراسة في أي مكان بباب مقفول.. أبكي إلى أن تنقطع أنفاسي، وأشعر بتلك الرغبة العارمة في إنهاء حياتي بأسرع طريقة ممكنة.. تُرى هل كان هو السبب؟ هل كان يحدق في وجهي في تلك اللحظات؟ هل كان يحتضنني حينها ويحاول أن يبتلعني؟ لا أعلم يقينًا..

لكن ما أصدقه حقًّا هو أن هناك أكثر ممًّا نرى فيما نرى، ولهذا ينبغي أن نؤمن أكثر ممًّا نبصر، وأنا آمنت بـ«سليم»، حتى حينما كفر به الناس كلهم، حتى بعدما كفر هو بنفسه.

ولهذا واصلت الهروب.. كان جسدي قويًّا، وما زال كذلك نسبة إلى عجوز مثلي.. كنت أركض في شوارع القاهرة بلا توقُّف. لا أعلم كيف احتملني قلبي تلك المدة كلها، لكنه صمد على الرغم من كل شيء. أركض هربًا من الكآبة التي تتلبَّسني كالشياطين، من البكاء والوحدة والجنون، ومن رغبتي الشرسة في الموت.. أقضي جل يومي في الركض والسباحة في النيل حول الفلوكة التي صارت بيتي الوحيد، وفي عشرات الأحاديث القصيرة مع الباعة والعابرين والمشردين وأطفال الشوارع.. كنت أغمر نفسي بالتفاصيل، آلاف التفاصيل، لتحول بيني وبين الوحش المفزع الذي يطاردني في كل مكان.

كانت نظرات وابتسامات المشردين التي أبصرها على وجوههم بعد عناق طويل غير مبرر، وكوب من عصير القصب أو ساندويتش، كفيلة بمنحي لحظة مضيئة وسط الظلام.. لحظة واحدة من الرضا والسكون.. وحينها، فكرت في طريقة للإبقاء على النور لفترة أطول.

قاعة «الكونسر» التي امتلأت جدرانها بنغمات النشاز المخيفة، تلك التي تلفت تمامًا ولم تعُد صالحة لاحتواء الموسيقى مرة أخرى، قاعة «الكونسر» التي هجرتها حينما أصابها سرطان الظلام، وألقيت كماني جانبًا وفررت منها وتركتها وحيدة.. هل يمكن أن أعود إليها الآن مع كماني القديم، وأعزف؟

هل يمكن أن أعاود البحث عن «البارتيتورا»، نوتة «المايسترو»، كلية المعرفة؟

هل يمكن أن أستعيد إيماني بوجودها من الأساس؟

تساقطَتِ الكلمات حينها من عقلي، ولم أعُد أدرك سوى صور.. صورة ابتسامة فتاة مشردة صغيرة أخبرتُها أنها تشبه «فاتن حمامة».. صورة رجل مجذوب جلستُ جواره على الرصيف وأطعمته «ساندويتش كفتة»، فضحك وقبَّل وجنتي.. صورة امرأة معدمة تجلس تحت شجرة في حديقة الحيوان، محاطة بعشرات القطط، توزع في أفواهها الطعام الواحدة بعد الأخرى، وتدندن لحنًا ما غير منتبهةٍ لنظرات احتقار المارة.. صورة ذلك العالَم الموازي، حيث تعيش الأحلام التي لم تتحقق، والأطفال المجهضون، والثورات غير المكتملة، حيث توجد طفولتنا التي لم نعِشها، وقصص الحب التي لم نمر بها، وأنصاف أرواحنا التي كانت تدور معنا في المدار ذاته بالسرعة ذاتها، فلم نتمكن من لقائها قط.. حيث كل الأشياء التي كان ينبغي لنا أن نكونها ولن نكونها أبدًا..

هناك.. حيث النور.

ثم أرى صورة الفضاء المعتم الجميل، الذي تتبدد فيه الأسماء والمسلَّمات، ذلك الذي ينقل الضوء من دون أن يُضاء به..

صورة القمر الذي يلتقط شعاع النور من الشمس ويمد يده إلينا به، في حين يظل هو وحيدًا ومظلمًا، بائسًا وودودًا، باكيًا من دون أن تفارق وجهه تلك الابتسامة التي يشير إليها الأطفال منذ القدم ويضحكون..

صورتي وسط ذنوبي وبؤسي واختلال عقلي، وسط قطع الظلام التي استنزفت روحي وأنهكتها، وسط كل المتعبين المنتهَكين من الجنون، هؤلاء الذين حاولوا أن يزهروا، فحجبت عنهم أمخاخُهم المعطوبة النورَ والهواءَ، فذبلوا..

لكنني، وإن لم أستطِع أن أكون زهرة، ألا يمكنني أن أصير الوحل الذي يُنبِت الزهور؟!

جمعت بعد ذلك كل الأموال التي تبقَّت من إرثي.. اشتريت بها بيتًا صغيرًا على أطراف الجيزة، تحيطه أرض زراعية بمساحة فدان واحد. أشهرتها كجمعية خيرية ثم تنازلت عن إدارتها لشخصٍ بدا لي طيبًا وكريمًا، لعدم قدرتي على التركيز والإدارة، وعرفتُ بعدها أنها صارت تؤوي عددًا كبيرًا من الأطفال المشردين.. كنت أقوم بزيارتها بانتظام. ألعب مع الصغار وأتنزَّه في الحديقة المزروعة بالفاكهة.. آكل منها حتى الشبع، وأبذر فيها بذورًا جديدة وأمضي.

وبعد فترة، تغيَّر طاقم العمل وتغيَّرت الإدارة ولم يعُد أحد منهم يعرفني سوى الأطفال، الذين كانوا يحسبونني بدورهم شخصًا مسكينًا خفيف العقل يتردَّد على المكان ليأكل ويقضي وقتًا ظريفًا. كنت أبيت في بعض الليالي في الحديقة، أعزف على الكمان حتى مطلع الفجر. وبعد فترة أبلغني أفراد الأمن أن مظهري الرث وسلوكي الغريب والموسيقى التي أعزفها ليلًا صارت تُخيف الأطفال وتزعج العاملين بالدار، ولهذا يُستحسن أن أبحث عن مكان آخر أتلقَّى به المساعدة ولا أعاود الظهور هناك مرة أخرى.

غادرتُ حديقتي التي زرعت في أرضها كثيرًا من الفاكهة والأطفال والموسيقى، ولم أزُرها مرة أخرى أبدًا. ذرفت بعض الدموع في البداية، ثم مسحتها وركضت. ركضت على الطريق الزراعي إلى أن كاد قلبي يتفجر. ارتميت أرضًا حينها ولم أنظر إلى الخلف. أدركتُ أن كل ما زرعته سينبت ويطير ويبحث عني أينما كنتُ.. فقمتُ وركضتُ من جديد.

* * *

في صباح يومٍ ما، استيقظتُ على ظهر الفلوكة، وقررتُ الكتابة لـ«سليم». لم أكتب كثيرًا؛ فالرسائل السابقة قيل فيها كل ما يمكن أن

يقال، لكنني كنت محتاجًا إلى هذا لسببٍ ما.

غادرتُ الماء وشققتُ طريقي إلى الجمالية، وكالعادة طرقت باب الشقة في الطابق الأرضي لأسلِّم رسالتي للعجوز، لكنها لم تستقبلني بالوجه ذاته؛ كانت حزينة ومذعورة.. أخبرتني أنها لملمت أشياءها وقررت مغادرة الشقة إلى الأبد.. ستسكن عند إحدى بناتها ولتذهب الجمالية كلها إلى الجحيم؛ فالعمارة مسكونة بالعفاريت، والمأساة التي حدثت منذ عشرات الأعوام عادت وتكررت من جديد. أخبرتني أنهم عثروا على بنت «سليم» في شقتهم القديمة. قال البعض إنها كانت مقتولة، والبعض الآخر إنها منتحرة، لا يهم.. المهم أنها وُجِدَت برأس مهشم تمامًا تغطيه الدماء، وفم محشو برماد أسود من بقايا الحريق القديم. وأمام جثتها، على الحائط المقابل، ووسط بقع الدماء المنطبعة على الحائط، وجدوا رسمًا شديد الضخامة، لرجل ملون بالكامل باللون الأسود، لا ملامح له ولا تفاصيل.

بكت المرأة من شدة الرعب. كانت ترتعش، حتى إنها رفضت الاحتفاظ بالرسالة؛ لأنها ستغادر هذا المكان الملعون وتقطع صلتها به إلى الأبد. قالت كلماتها الأخيرة وهي تدفعني إلى الخارج ثم أغلقت الباب في وجهي. وأنا كنت أرتجف من هول ما سمعت،

يا إلهي.. هل يمكن أن تكون؟!

ارتقيت درجات السلم ببطء.. تذكرت «سليم» وهو يخبرني أنه ألقى بنفسه من نافذة الطابق الرابع.. تذكرتُ حينما كان يرتقي السلم ذاته، عندما رأى الديدان تزحف على الجدران ذاتها.. تذكرتُ الرجل المظلم الذي كان يتقدمهم جميعًا ويقودهم إلى أعلى، وكل الأشياء الرهيبة التي رآها من خلال جسده. وعندما وصلت أبصرت باب الشقة المكسر

المغلق بالشمع الأحمر والأشرطة الصفراء. تخلصت منها بشيء من المجهود، ثم دخلت في قلب الظلام.

فاجأني الظلام الكامل غير المشوب.. نظرت خلفي إلى الباب فرأيته وكأنه من عالم آخر، وكأنه يبعد عني أميالًا آخذةً في التمدد. يقف شعاع النور على عتبته ولا يتخطاه إلى الداخل، لأصير وحدي تمامًا..

لكن.. هل كنت وحدي حقًا؟

تحسست جيوبي من دون تفكير، على الرغم من علمي بعدم امتلاكي بطارية، أو حتى هاتفًا محمولًا يمكن أن أستخدمه في الإنارة.. شعرت بالظلام يحدِّق في وجهي.. أحسست به على جلدي، وبثقله على روحي.. هل كان يسحبني إلى الداخل؟ أم أنها إرادتي أنا التي دفعت بي إلى مواصلة التقدُّم وسط كل ذلك الزحام غير الموجود.. لا أدري.

مددت ذراعيَّ للأمام لأتفادى الاصطدام، مشهرًا الكمان أمامي كدرع، وكأنني أحتمي به من النشاز الذي يسكن الجدران ويطفح منها.. وبعد بضع خطوات، لمست الجدار.

مشيت حذوه وأنا أتحسسه بحذر، إلى أن وصلت كفي إلى إطار خشبي مزروع بالمسامير.. هذا تمامًا ما كنت أبحث عنه.. نافذة!

استكشفتُها بشغف التائهين.. ضلفتان كبيرتان بزجاج مكسور، خلفهما شيش مغلق، وأمامهما أربعة ألواح خشبية مثبتة بشدة.. المسامير كبيرة وصدئة وغائرة في شقوق الخشب، وأنا لا أملك أي أدوات، لا شيء سوى يديَّ العاريتين.. حاولتُ عبثًا اقتلاع أحدها، فلم يفلح الأمر في البداية، لكنني واصلت، وبعد برهة، مددت أصابعي لأنتزع قطعة من الزجاج.. لم أهتم بالدماء التي سالت مني.. اهتممتُ فقط بتلك القطعة الصغيرة التي استطعتُ انتزاعها واستخدامها في إخراج المسمار.

استغرق الأمر دهرًا. تهشمت قطعة الزجاج إلى ثلاثٍ.. استخدمتُ أظافري حتى انفصلت عن لحمي، ثم عاودت استخراج بعض الهشيم مرة أخرى، وهكذا إلى أن نزعتها جميعًا وألقيت بالألواح الخشبية جانبًا. فتحت الضلفتين ثم الشيش. دفعتها بعنف بما تبقى من كفين ممزقتين.. كان الألم عظيمًا.. نظرت إليهما فأدركت ما حلَّ بأظافري، وأبصرت هشيم الزجاج مزروعًا في كل جزء فيها، لكنني تجاهلت هذا كله وحدقت في النور.

عاودت النظر إلى الخلف، فرأيت للمرة الأولى..

رأيتُ الشقة المتفحمة. كل شيء هنا محترق وكأنه قاع جهنم.. وفي الهواء حولي، اهتاج الرماد والغبار القديم بفعل الرياح القادمة من النافذة، مشكِّلًا سحابة رمادية ضخمة تشمل بداخلها كل شيء. وكأنها شكل من أشكال الظلام، إلا أنه ليس أسود.

ترى هل هناك ألوان من الظلام غير تلك التي نعرفها؟

وهناك، على الحائط المقابل للنافذة.. أبصرته!

كان كما قالت العجوز، رسمًا ضخمًا لرجل ملوَّن بالكامل باللون الأسود، لا ملامح له ولا تفاصيل، يتوسَّط الحائط الرمادي المحترق، ومن حوله وتحت قدميه بقع دماء كثيرة، وأوراق مبعثرة. اقتربتُ منه بحذر، انحنيت والتقطتُ بعض الأوراق والدفاتر الملقاة أرضًا.. تصفحتُها سريعًا فلم أجد فيها سوى رسوم ورموز لا معنى لها.. الكثير والكثير منها، وكلها بالنسق ذاته، إلى أن لفتت نظري إحدى الورقات وأثارت دهشتي.. كان مطبوعًا فوق الرموز العجيبة بقعة دم كتلك التي تلطِّخ بها الجدار والأرض من تحته، إلا أن تلك البقعة تحديدًا كان لها شكل واضح، وكأنها رسم مقصود لطائر مشرعًا جناحيه، وصدره مفتوح على بياضٍ ناصع.

غريب.. فكرتُ.

عاودتُ النظر إلى الرسم على الحائط، فأبصرت لونه الأسود الفاحم يبهت شيئًا فشيئًا أمام شعاع النور الآخذ في الاحتداد.. جلستُ أرضًا، وأسندت ظهري إليه.. أمسكت الكمان ووضعته تحت ذقني.. لم أستطِع التفكير حينها سوى في الفتاة الباكية في رؤى «سليم».

الفتاة التي لم تكف عن الاستغاثة، إلا عندما كفَّ هو عن الإيمان..

تلك التي بحث عنها في الماضي ولم يجدها..

وبَحَثَتْ هي عنه الآن فلم تجده..

فسقطت في الظلام.

رفعتُ الكمان وبدأت في العزف.. تجاهلت الألم المبرح المستشري في أصابعي وكفَّي يدي، وواصلت العزف..

ها هي الشمس أمامي مباشرة، تتوسط فتحة النافذة وتحدق في جوف البيت القديم..

الرياح تهب من جديد وتعاود تهييج الغبار والرماد والدفاتر الممزقة..

تداعب وجهي إحدى الأوراق وهي تطير.. كانت تلك التي انطبعت عليها بقعة الدم على شكل طائر مجنَّح.. مَسَحَتْ على وجنتي ومضت.. رفرفت قليلًا وسط السحابة الرمادية التي بدت وكأنها غيمة من الظلام الأبيض..

ثم تخطت النافذة..

وتماهت مع النور.

شكر

بكل المحبة أتوجه بالشكر والتقدير للأصدقاء المبدعين ممن
ساعدوني في تحرير النص وتعديله، الأستاذ أحمد عبد المجيد،
الأستاذ عمر القيصر، أخي الحبيب محمد عاطف،
وأختي التي لم تلدها أمي مروة أحمد.

كما أدين بالفضل والامتنان لأسرتي الصغيرة الجميلة،
زوجي الحبيب محمد، وابني وصديقي الرجل الصغير علي،
وابنتي وفراشتي الملونة بيسان.

الظلام يَرَى

"في عالمنا هذا لا شيء يولد ليموت. كل الأشياء تولد لتبقى، وإن كنا لا نعي طريقتها في البقاء"

ولهذا فإن أصعب ما في الحكايات هو اختيار بداياتها، ونهاياتها؛ فبداية القصة هي بداية ألف قصة آتية، ونهايتها هي نهاية ألف قصة ماضية، فمن أين يمكن أن تبدأ تلك الحكاية؟

ربما عندما أبصر "سليم" بعينيه المغلقة، ما لم يبصره الناس بعيونهم المفتوحة. عندما حاصرته الرؤى ودفعته دفعًا لإلقاء نفسه من نافذة بيت الجمالية. كان يتمنى بلوغ ظلام الموت الجميل، لكنه وجد نفسه وجهًا لوجه مع ظلام الحياة المفزع، هذا الذي يَرى ولا يُرى. إلا أن الحكاية أكبر من أن يؤرخ لها شخص واحد. لقد كان "سليم" جُرمًا واحدًا في فلك الحقيقة المضطرب. حقيقة البداية والنهاية والجنون.. حقيقة الأرض السابعة.

ألفت عاطف

كاتبة وشاعرة مصرية من مواليد عام 1988. حصلت على ليسانس الآداب قسم علم النفس، وتخصصت في دراسات الإبداع. صدر لها ديوان شعر فصحى بعنوان "متلازمة السقوط من الجنة" عام 2017، ورواية "ولا تقربي هذه الشجرة" عام 2018، والمجموعة القصصية "الموت قبل الأخير" عام 2020. وتُعتبر "الظلام يرى" هي روايتها الثانية.

تصميم الغلاف: كريم آدم